

محمد فريد أبو حديد

عشرة بن سداد

٤٣

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

كان قوامها مثل الغصن الرطيب ، إذا اهتز في مطانع الربيع ،
 وكان لونها مثل لون الحجر إذا أضأت في كأس من البلور ، وعيناه
 السوداوان أصيثن في جلاوة وأبعها الجبين ينحدر إلى فيه وديع .
 وكان في أذنيها قرطان من الذهب تتدلى منهما حسنة من لؤلؤ
 المحرين أهداهما إليها أومح مالك من غنيمة غنمه من قافلة
 كانت تهبط إلى أرض الحجر . تلك هي عملة انبة المدرس
 العباسي مالك بن قراد وكانت عائدة من عرس ابن حانتها في
 هوارن ، تلبس ثوباً معصفاً من الكتان يلح في ضوء الشمس
 فاقعاً ، وتضع حول رأسها خماراً من الحرير المصري من صناعة
 (دبيق) يتغير لونه في سماع الصوء ويأتلق فوق وجهها الوضي .
 وكان يأخذ زمام بعيرها وهي في هودجها شاب أسمر اللون يشبه
 قوامه الرمح الذي في تمينه ، قامه عالية ورأس مرفوع وحيدر
 فسيح ، وقد شمر عن ذراعين مفتولتين قويتين . وكانت عيناه

تبصان في لمح خاطف ، وأنفه الأتقى ينحدر إلى فم قوى فيه شيء
من الغلظ . وكان يحدو بأراجيز يتغنى بها يمزج فيها بين أنغام
الحرب وأنغام النسيب . وكانت عبلة تسمع حذاءه وهي مطمئنة
إلى أنها في حماية الفارس الذي لا يجروء الأعداء على الاقتراب
من ركبته عنقرة عبد شداد .

وسارت الإبل في قطار طويل يتبع أحدها الآخر تخطو
خطواً وثيداً لا تعباً بشيء مما حولها ولا يستحشها شيء من أمامها
ولا من خلفها . وجاء في آخر الركب جمع من الأتباع والعبيد
يسيرون مشاة يسوقون الرواحل التي تحمل الزاد والماء ويدفعون
في أعجازها بعصيهم الغليظة حتى لا تنقطع عن القافلة .

و بلغ الركب مورد الماء وكانت تلك آخر مرحلة في السير قبل
العودة إلى منازل عبس في أرض الشرابة والعلم السعدى . وأوقف
عنقرة بعيره الأول ووقف القطار كله لوقوفه ، وأسرع العبيد والأتباع
إلى ما اعتادوه عند النزول فأماخوا الإبل وجعلوها صفوفاً في
ناحية من الوادى ، وأناخ عنقرة بعير عبلة وأزاح الستار عن
نهودجها ونظر إليها باسمها ومد إليها يديه ليساعدها على النزول
فردت عليه بابتسامة شكر وقالت وهي تقفز خفيفة :

— لقد أحهدك السير يا عنتره وأنت تأبى الركوب .

فأسرع عنتره قائلاً وهو يسندها :

— وكيف يصيبني الجهد وأنا أحدو بعيرك يا سيدتى ؟

وسارت عبلة إلى ظل شجرة قريبة وقالت وهى تميل إلى الرمل لتمهد لها مجلساً :

— لم أسمع شيئاً يشبه حذاءك يا عنتره . لقد أحسست البعير ينشط لا شادك .

فأجاب عنتره مسرعاً :

— وكيف لا يطرب به إنشادى وهو فى وصفك ؟

فضحكت عبلة ضحكة تشبه غناء الطير ومالت لتجلس ، فأسرع عنتره فرمى شملته على الرمل ومدّها لتجلس عليها ثم نظر إليها نظرة سريعة شملت كل صورتها وأسرع وهو خفيف الحركة يثب فى خطواته لكى يرى سائر من فى القافلة من ذنات عباس ونسائها ويساعد من تحتاج منهم إلى مساعدة .

ولما فرغ من ذلك نادى العميد وأمر بعضهم أن يذهبوا إلى الماء ليملأوا الخوض لسقاية الإبل ، وأمر آخرين منهم أن يصربوا أخبية النساء عند فم شعب قريب من الماء ، وأمر غير هؤلاء أن

يوقدوا النيران لإعداد الطعام، ثم ذهب إلى ناقة بيضاء فحلب منها في إناء حتى ملاءه ووضعه في الظل فوق صخرة عالية ليبرد في الهواء . ومضى بعد ذلك إلى الدثر فسقى جواده ثم ركبته ودار حول الماء ليرى هل هناك قوم ينزلون عنده ، حتى إذا اطمان إلى أنه في مأمن وأن ليس هناك ما يخشاه أوغل بين الكتبان وجعل يجوس خلالها ويتأمل ما على رماله من آثار الأقدام ، وأخفاف الإبل ومخالب الحيوان . ثم عاد يسير سيراً وثيداً وهو يغنى وينقل طرفه في جوانب الأفق حتى اقترب من الماء ، فوثب عن فرسه وألقى زمامه على ظهره ومسح بكمه على ظهره ، وبعثه بيده إلى ناحية من الوادي . وأدرك الجواد ما قصده صاحبه فحمحم وهر رأسه ووثب كالغزال وأطلق إلى جانب الوادي فجعل يتطف من أطراف الأعشاب البصة التي خرجت مع أول الربيع .

واتجه عنقرة بعد ذلك إلى الماء وهو لا يزال يغنى ، فوجد العبيد قد فرغوا من سقايتهم ، وسمع صوت ضحكات الفتيات ترن في أقصى الشعب ، فأطل من وراء صخرة فرآهن يتواثبن ويعبت بعضهن بالماء ويتقاذفن به .

ورأى عبلة وهي تلهو بينهن وتجاوسهن ، فوقف في ظل الصخرة

بتأمل وجهها وبستمع إلى صوتها وهي تكرر في ضحكها ،
وعادته ذكريات أحلامه التي كان يكتبها في طيات
صدره ولا يجرؤ على أن يصريح بها نفسه ، وأحس قبضة
حزن أليم إذ تذكر أنه لا يزيد على أن يكون عبد عمها
تداد وأنه ان يستطيع أن يفوز منها بأكثر من أن يدعوها
فانثلا « سيدتي » ، وأن يتألفا لها إماء اللين لكي تشرب منه
وأن يخدمها في رحلاتها ويمد إليها يده ليسندها إذا زلت من
هودجها . بل إنه لم يكن ليجرؤ على أن يدمس سمها أمام
أحد من عبس خوف أن يتحدث الناس بأنه يتطوع إليها فيحرمه
أنوها مالك من رؤيتها ، فما كان مالك أبغض أن يتطوع عبد
مثله إلى ابنته الجميلة التي يتنافس على التقرب إليها سادة الشبان
من أكرام الأنساب .

وفيما هو في حيالاته رأى عبلة قد أقبلت حتى وقفت عند
الحوض فمات عليه تترى صورتها ، وجعلت تصالح من شعره ، ومن
وضع وشاحها الذي اضطرب في أثناء جريها ولعبها ، فلم يملك
نفسه واندفع من مكانه مسرعاً يحوها وقال لها بصوت رقيق .
— عرارة يانعة من عرار الربيع وحق مناة !

فجملت عبلة وصرخت عند ما سمعت صوته، ثم اطمانت عند ما رآته وقالت ضاحكة :

— لك الويل يا عنتره !

فمضى عنتره قائلاً :

— واقحوانه ناسمة سقاها المدى !

وأقبل العتيمات من آخر الشعب عند ما سمعن صوت عبلة في صراحها، فلما رأين عنتره وهو يحدثها انفجرت منهن ضحكة مرحة وأسرعن اليه يصحن به حتى أحظن به وجعان يعثن به من كل جانب، ويتواثبن حوله ويجذبن أطراف ثوبه وكل منهن نتجه اليه بكلمة من فكاهة أو سباب مزاح، إذ تعودن منه وداعة العبد الذى لا يغضب .

وقالت احدهن وهى مررة ابنة سداد وكانت أجراهن عليه :

— إنه جاء يتجسس علينا أيتها العتيمات !

فمد يديه نحوها وقال :

— وهل كنت لأحرم نفسى من النظر الى ظباء غريرة

تمرح فى خلاء ؟

فصاحت مررة ضاحكة :

— والظباء لا تدرى أن الأسد يتربص قريباً منها .
فضحككن وأقبلن عليه وكل منهن تقذفه بكلمة ، وهو يمتل
نظره بينهن ضاحكاً حيناً أو متظاهراً بالغيظ حيناً ، وهن يزدن .
ضحكاً ويمضين فى العبث به .

واقتربت منه فتاة فصاحت .

— وحق مناة لا ندعك حتى تشد لنا من شعرك !
فصاح الغمقيات جميعاً :

— نعم انشدنا يا عنتره .

وقالت مروة انمة شداد :

— والا قطعناك حتى لا ندع منك الا أسنانك انميص .

فالتفت عنتره حوله حتى وقعت عينه على عبلة فقـل :

— لن أقول شيئاً حتى تأذن لى سيديتى .

فصاحت الغمقيات بعبلة : مرى عبدك أن ينشدنا . مرى

عبدك يا عملة أن ينشدنا والأأحطما بك أت .

فتمالت عبلة ضاحكة :

— حسبكن أيتها الغمقيات خبتاً !

فصاحت بها مروة :

— مريه يا عبلة . مري هذا العبد الذى لا يأتى إلا بأمرك .

فقالت عبلة وهى تظهر بالغيظ :

— ما أخبتك يا عنتره إذ تمريض على هؤلاء !

فقال عنتره : وماذا يغضبك ياسيدتى ؟ إني لن أطيق أن
أكون عبد واحدة منهم . لست أرمى إلا أن تكونى أنت
سيدتى .

فزاد ضحك الفتيت وأقامت عليهن عبلة تدومهن فى صدورهن
فى رفق وصاحت متظاهرة بالغضب :

— قل شعرك يا عنتره حتى تكمد صدورهن . فوحق مناة
أن الغيرة أتا كل قلوبهن كما سمعن إياك تنشد شعرك لى .

فوثب عنتره فى مرح وجهل ينشد . تخنيا بقطع من شعره ،
والفتيات يضربن بأكفهن على وقع إيشاده وعبلة تظفر إلى وجهه
الأسمر الحسن القسمات ، وتتأمل حركته الرشيقه وهو يمثل مواقفه
فى القتال حيناً وطعناته بالعدو حيناً ، أو يصف عدو الخيل واضطراب
الحرب ، حتى انتهى إلى النسب فجعل يصف محاسن نمتاته ونبل
شيمها وعلو حسبها ، وتغير مظهره عند ذلك فاعترته هزة وارتجفت
نبرات صوته واتجه إلى عبلة كأنه يخاطبها . وهدأت حركته بعد

عنفها ولانت نظراته بعد أن كانت تخطف كالبرق، وفتح الفتيات أعينهن مأخوذات بما كان ينبعث في ثنايا شعره من حرارة، حتى انتهى من الإنشاد وهو بلهت وينظر إلى عبلة في وجد غامر . وهذأت الأصوات لحظة وعبلة تنظر إليه في دهشة، ثم انفجرت صيحة من الفتيات واندفعن نحو عنترة يستعدن إنشاده . فانقلت مسرعا من بينهن وذهب إلى قم الشعب حيث ترك فرسه، ودار حول الماء حينئذ ينظر إلى العبيد وهم في شغل من إعداد الخيام وانضاج الطعام ، ثم مضى إلى الكتبان يجوس خلالها وهو غائب في مناجاة شجونه الثائرة .

وذهب الفتيات إلى حيث ضربت الخيام . وأقبلن على من هنالك من النساء فحدثنهن بما كن ، وكل منهن ترسل في حديثها كلمة تصور لها ما أحست من الغيرة من اتجاه شاعر عبس عبد شداد إلى عبلة ابنة مالك وهو يشد أشعاره كأنه لا يقصد غيرها بالنسيب . وكانت أشدهن حبةً وعنفًا مروءة ابنة شداد، فأرادت أن تعيظ عبلة ابنة عمها مالك فجمعت الفتيات وأخذت تنشد وهن يرددن التمشيد مصمعات فقالت :

أما رأيتم عنترة يسير سير القسورة

في حلة مُعَصْفرة وُلْمَة مَضْفَرَّة

وعمة مكورة

أما سمعتم قوله أما عرفتم فعله

ويل له يا ويله ينشد منذ الليلة

عنتر عبد عملة

وتعالى صحكهن بعد ذلك وجعلن يرددن النشيد ويعبثن
بعلة حتى غضبت وذهبت إلى خبائها ، فسرن وراءها وجعلن
يجذبنها وهي تدافعهن . وفيما هن في ذلك أقبل عنتره عائدا يحمل
قعب اللبن ، فلما رأيته أقبلن عليه وأحطن به وجعلن يرددن نشيد
مروة . ولكنه مضى هادئا بالقعب حتى قرب من علة فقال :

— لا عليك يا سيدتي من هؤلاء .

فقالت علة غاضبة :

— حسبك يا عنتره فقد جرأتين على .

فمد يده بالقعب نحوها باسمها وقال :

— لا عليك يا سيدتي . انهن كما تعرفين حقاوات عبس .

فعلا ضحك القتيات وصاحت به مروة :

— امسك أيها العبد وإلا . . .

ووثب الفتيات إلى الإناء فأخذنه وحملن يشرن منه وعنصرة
واقف ينظر إلى عبلة إذ تسير مغضبة إلى خمارها .
وسار وقلبه واجف فانتحى مكانا على كتيب في طرف الخيام
وجعل ينظر إلى الفضاء الذى حوله وهو نائر الأشجان . وكانت
ضحكات الفتيات ترن في أذنيه من بعيد كأشباحها أصوات عاصفة
ناثرة فما كل عمترة عندهن إلا عبداً ، وما كانت عملة لترعى
أن يعرف صاحباتها أن عمترة يتجه بانشاده إليها

٢

قضى عنصرة ساعات ينجى نفسه فى الليل الساجى وكان
مستغرقاً فى هواجسه عند ما سمع صوتاً من ورائه يناديه :
— أما إنك لحارس غافل .
فالتفت إلى ورائه مجفلاً فلما رأى ذلك الذى يناديه تبسم وقال :
— لم يكن غيرك ليفعل ذلك أيها الخميث
وكان هذا أخاه من أمه شيبوب الذى لم يكن يفارقه فى
رحلاته ويرعاه بعميه أينما كان
فقال شيبوب : بئس حارس القوم أنت ! ببعد عن منازل

الحرم وتخلو على مثل هذا الكتيب المعيد ؟ وهل تأمن أن يكون
الذى أتى من ظهرك عدواً ؟

فقال عنتره : صدقت يا شيبوب . ولكن عدوى لا يجرؤ على
أن يقرب منى .

فقال شيبوب : وإنك لمتناجى النجوم كأهها تحدثك لقد
يخيل إلى أحيانا أنك تخلو إلى شيطانك .

وقال عنتره : نعم هى النجوم التى أماجها كما نقول . إلى
أنظر إليها فيخيل إلى أهها تحدثنى ، فأحيانا تصحك وأحيانا
تبكى وأحيانا تسخر .

فقال شيبوب : وأحيانا تصيح عاضبة بعير شك .

فقال عنتره . نعم تصيح ولكنك لا تستطيع أن تسمعها .

فقال شيبوب : وماذا كانت تقول لك الساعة ؟

فقال عنتره فى حزن : كانت تصيح لى « أيتها العبد لم جئت ،

إلى هذه الأرض » ؟

فقهقه شيبوب وقال : إنها إذا لجماء . لقد أتيت إلى الأرض

كما يأتى هذا الناس جميعا . تقذف بهم أمهاتهم إليها .

فقال عنتره : صدقت يا شيبوب إنها أمى التى قذفت بى . إنها

هى التى جاءت بى إلى هذه الأرض لأرعى إبل شداد أولأقضى
سهارى فى نضال أو قتال وكلما مرى رجل نظر إلى بمؤخر عينيه
قائلاً « هذا عبد سداد ». فإذا جاء الليل أويت إلى مصبجى فلا
أكاد أستقر عليه حتى تساورى الهموم وتلهب قلبى الأحقاد
فأثب خارجاً من ظل بيتى لى استروح من أهاس الليل الباردة
لعلها تذهب عنى حر قلبى .

فقال شيبوب فى خمة : أهذا ما جاء بك إلى هنا .

فقال عنقرة فى حزن : نعم هذا ما جاء بى إلى هنا ؟

فقال شيبوب : حسبت أنك تنتظر موعداً من أحداهن .

إن النساء يعجبن بك يا عنقرة ، ولو كنت أفوز منهن بعشر
أعجابهن بك لما قضيت ليلة إلا على موعد .

فضحك عنقرة فى فتور وقال : هو طبعك الذى أعرفه .

ولست أحب أن أسبك بمثل ما يسبى الناس به فأقول لك
« أيها العبد » ، ولكنى كلما رأيت خصالك لم أملك إلا أن
أراك عبداً . إنها شيمة العبيد التى فطرت عليها فلا تعرف
من المرأة إلا جسدها .

فضحك شيبوب ضحكة طويلة وقال :

— وماذا تجد أنت فيها غير جسدها ؟ بل ماذا تجد من الرجال ألا أجسادهم ؟ إننى لا أرى منك إلا هذا الجلد الأسود الذى يشبه جلدى ، وخير لك أن تستمع إلى نصيحى وتعتنم فرص أيامك فمن يدرى ؟ من يدرى ماذا يحمل لك الغدا عنتره ؟ أف لك أيها الرجل ! أتراهن يتواثبن حولك ويجذبك من أطراف ثوبك ثم لا تجيب هذه بقبلة وهذه بموعده ؟
فقال عنتره فى عبسة :

— لقد علمت يا شيموب أننى لا أحب أن أعبت ناخزى .
ولست أرضى أن أختلس اللذة اختلاساً . ولخير عندى أن أفتحم بيت الرجل فأنزع امرأته من بين يديه قسراً أو احتطف ابنته عنوة وأدعوه إلى نزالى حتى أقتله وأمضى بالمرأة سبية ، هذا خير عندى من أن أختلس قبلة من امرأة أو أخرج فى الليل أتلتصص كما يدب الذئب إلى الشاة . لست فى شىء من ذلك يا شيموب وما هو إلا طبع العبد يوحى إليك بما أنت أهله .
فتمهقه شيموب قائلاً :

— طبع العبد الذى فى أنا ؟ أتسبى بذلك يا عنترة ؟ كأنى بك أحد هؤلاء الذين يجرون أذيالهم كبرا عند نادى عبس .

فقال عنتره بعد لحظة صمت : صدقت يا شيبوب ولا تؤاخذنى ،
فقد دثعنى الغيظ إلى العنف فى قولى .

ومد يده إلى رأس شيبوب وجعل يمسحه مداعباً ، ثم
استمر قائلاً : لا تؤاخذنى بما قلت فإنى أحبك يا ابن
أحى ، وأرى أملك الرجل الذى تحببى أشد الحب وأخلصه .
وأملك عندى لأكرم من هؤلاء السادة الذين يشمخون بأنوفهم
كبراً . إنك لتطلق ساقيك فتجربى أسرع من الظليم ، وما
أحلى منخريك إذا هما انفتحا كما يفتح منسخر الفرس
الأصيل وهو يعدو . وإنك شجاع القلب طيب النفس لولا
هذا الرعب الذى يعتريك من منظر الدماء . ولكمك
مع ذلك كله تخالفنى فى رأيك . ولا بأس عليك إذا كنت
تخالفنى ، ولكن تعلم أنك تخالفنى .

فتخلص منه شيبوب برفق ونظر نحوه باسماً حتى لمعت
أسنانه البيضاء فى ضوء القمر وقال له :

— وإنى والله لأحبك وأرئى لك من هذه الوسوس التى
تؤرقك . دعنى أيتها المسكين أمضى لحاجتى فإننى تركت ورأى
ثريداً وخمراً وقت أبحت عنك خوفاً من أن يكون قد أصابك

شر . وأحمد مناة إذ لم يصبك شيء إلا مناجاة النجوم .

فتبسم عنقرة وقال : عد إلى خمرك وثريدك فانعم بهما .

فقال شيبوب : ألا تحب أن تذوق معي شيئاً ؟ لقد علمت

أنك لم تطعم شيئاً منذ الليلة . كل واشرب فوحق مناة ما يخرج

المرء من هذه الحياة إلا بهذين : الطعام والشراب .

فقال عنقرة باسمها : والمرأة أنسيتهما ؟

فقال شيبوب ضاحكاً : أما المرأة فلا يخرج المرء بها .

ومن ذا الذي ينوح عليه إذا قتل ؟ ولقد ذكرتني بالمرأة

يا عنقرة . فأنك لتهجس بها وتخفي في قلبك ما يأتى إلا

أن يذيع .

فالتفت عنقرة إليه في اهتمام وقال :

— وماذا تعنى ؟

فقال شيبوب : لست أعنى إلا ما قلت .

فقال عنقرة : دع الخبث وقل لى ما فى نفسك .

فقال شيبوب : دعنى أذهب إلى ثريدى وخمري .

فنظر إليه عنقرة فى هدوء وقال : اجلس يا شيبوب وحدثنى

فانى أحب أن أحس وجودك معى . إننى أحس فى جوارك شيئاً يشبه ما يحسه الطفل إلى جوار أمه .

فضحك شيبوب وقال : أيت زينة أمك تسمع قولك هذا . إنها تقتل نفسهاهما من أجلك وتقطع قلبها من جفائك . فعمغم عنقرة كأنه يحدث نفسه :

— أيتها لم تكن أذى . ألا بلغها إذا رأيته أننى أمقتها . قل لها إنها أشأم أم وهبت الحياة الوليدة . ثم أسأله عن أبيك وعن أبى إذا عرفتهما . أتعرف زينة ذلك القرد الذى انحدرت أنت من صلبه ؟ سلها إذا استطاعت أن تجيبك . لقد طالما سألتها عن أبى وتانى إلا أن تقول لى إنه سداد ، ولسكنى أراه ينسكرنى ولا يرضى أن يهب لى اسمه .

فضحك شيبوب وقال : أما أنا فقد كان أبى من صميم جلدتى ، وإذا كان قرداً فانى به راض يا عنقرة . ولقد كنت يوماً من الأيام أعيش حرّاً فى بلادى قبل أن أحمل إلى هذه الصحراء المقفرة ، ولا أزال أتذكر أبى وهو عائد بجلد المر من صيده . كنت أنعم كما ينعم القردة بحريتهم لأننى لم أولد عبداً . ولست أحب أن يكون لى أب سوى القرد الذى جاء بى . وأما أنت فاطلب من

شدت من الآباء ودعنى وشأنى.

وهم أن يمضى فى سبيله ولكن عنتره جذبه إليه فأجلسه
فصاح شيبوب قائلاً :

— أما إناك لفظ عنيف إذ تجذبني هكذا فتكاد تدق عظامي .
نم لا تزال تحمل علىّ وتعنفني .

فقال عنتره باسمًا :

— صدقت يا شيبوب فى قولك فانى الليلة سبيء النفس وقلبي
ممتلىء حقدًا . ولكنى لا أجد فى هذا الناس ككده من ينفس
عنى سواك . إنك الرجل الذى أثق فى عطفه اذا تحدثت اليه ، وآمن
بجانبه اذا انصرف عنى ، وأطمع فى عفوه إذا أخطأت . أنت
شريكى فى غزرائى وربيتى فى منزلى ، وباك أشد ظهري
وبعينك الحادة أبصر ما خفى على . فخذتنى واصدقتنى فمحن فى
هذا الحى وحيدان لا يعرف أحداً إلا أخاه . وراست تجد
يا شيبوب فى هذه الأرض من هو أحنى عليك منى ولا من يعرف
قدرك مثلاً أعرف لك قدرك .

فوقعت هذه الكلمات موقعها من شيبوب فعدل عن عيبه
وصمت حيناً ثم قال :

— لست أود أن أبعث إلى نفسك ما لا تحب يا عنتره .
فوحق الآلهة جميعاً إن ما يرضيك أحب إلى مما يرضيني . وقد
كنت لا أعرف لى صاحباً حتى ولدت يا عنتره فوجدت فيك
رفيق لعى ، ثم كبرت فوجدت فيك أملاً جديداً ، ولما بلغت
مبلغ الرجال وصرت فارس عبس أصبحت عدتي وملاذي .
فأنا بك مباه معجب أحس أن ما تبني من الجدة هو مجدى وأن
ما تنال من السعد هو سعدى . ولست أألى أنك ابن أُمى فإننى
معك كما يسيرانمان فى مغارة لا نجاة لهما إلا بأن يبقيا معاً .
ولهذا كنت فى بصحى لك ألتس أخف الأقوال عليك فلا
أظهر لك رأياً إلا فى قول عابث لعله يقع من نفسك وقعاً ليناً .
واسكنى أظن أن أمرك قد صار إلى عقدة لا ينمى لك ولا لى
أن تغفل عن حلها .

وعند ذلك سمع صوت غناء ينبعث من ناحية الخيام يحمله
السيم متدفقاً متموجاً كأنه صوت عرائس الماء وهى تسبح فوق
بحر مضطرب .

فقال عنتره يقطع حديث أحميه :

— أما تسمع هذا الصوت يا شديوب ؟

فقال سيبوب : ليس لهؤلاء إلا العناء أو البكاء .

فقال عنقرة في حزن : إنه صوتها . هو صوت عبلة . وأحس أنه وقع في أبعد شعاب قلبي . إن لكل غمة منه وقعاً يسرى أثره في عروقي ، لا بل إلى أبعد فيه حساً لا أستطيع أن أضفه بهذا اللفظ الذي اعتدنا أن نصف به الحسيس من حسناً .

فصحك سيبوب قائلاً : إنك تأبى إلا أن تقول الشعر في كل ما تنطق به عنها . إنني أرحمك ولا أملك أحياناً إلا أن نوح منك .

فقال عنقرة : وأنى لك أن تدرك ما أحسه وأنت لم تقاس مثل حبي ؟

فقال سيبوب : وما لي والحب يا عنقرة ؟ إن النساء بعضهم من بهض . فما الذي يحملني على أن أرى في واحدة ما لا أراه في سواها ؟ كلهن يرقص ويغنى ويصحك ويثرثر ويأكل ويشرب . ولا فرق بين واحدة وأخرى إلا أن يكون أنفها أطول أو أقصر أو أن يكون فيها أوسع أو أضيق أو أن تكون إحداهن وطفاء الأهداب والأخرى عمشاء .

وسكت الغناء عند ذلك ، فقال عنقرة ضاحكاً :

— امض يا شيبوب إذا سئلت في حديثك . إنه يقع على سمعى
وقوع الندى على العشب الأخضر وإن كنت فيه خبيثاً . تكلم
وحدثني عن نفسك وعن نفسك . ماذا كنت تقول لى آناً ؟
أكنت تقول : إن أمرى قد آل الى عقدة لا بد أن محتمل
فى حلها ؟ فما تلك العقدة التى تتحدث عنها ؟
فقال شيبوب جاداً :

— أنت تعذب نفسك بهذا الهم الذى يملكها . إياك ترى
عملة بعين غطى الحب عليها وأخشى عليك عاقبه هذا الهم .

فقال عمتره ساخراً : وما نخشى على ؟
فقال شيبوب : أخشى عليك نمصب أهلها . أخشى عليك
أناها مالكا وأخاها عمراً فهما لا يصبران لك حملاً . عرفت ذلك
ولمسته وسمعه ، ولست أكذبك انى أحياناً أندس بين أجموت
لكى أسمع الأحاديث عنك .

لقد تحدث الناس عن حرك أكلة وأنت تحسب أنك
تحميه . وما اجتمع قوم فى ناد إلا ذكروك وذكروها فى همس ،
وقالوا إنك لا تقول الشعر إلا فيها . ولم أكن هازلاً منذ الليلة
وأنا أقول لك إن سرّك يأتى إلا أن يذيع . إنهم يتحدثون

عن أشعارك حتى بلغت مالكا وعمراً . ولست أسكر عليك أنك
مغرور في تلك البسمات التي تراها من عبلة إذا حدثتها . فهي
لا ترى فيك الا عبداً مطرباً .

فتجرك عنثرة في غيظ وقال في صوت أجش :
بل تكذب يا شديموب ويكذب من قالها .
فقال شديموب متردداً :

وانهم ليقولون ما هو أقذع من ذلك في أمك .
فقال عنثرة في صيحة مكتومة :

لا يخفى على ذلك وقد سمعته بأذنى . ولست أسكر أن هذا هو
الذى يدعوى إلى أن أقسو على هذه الأم المسكينة وأسمها كما
فعلت الليلة . فكما ضاق صدرى لم أجد متنفساً من ضيقى إلا
بأن أقسو عليها .

فقال شديموب هادئاً :

— وليس هذا كل ما أخشى . إننى أشفق عليك من عبلة

يا عنثرة .

فصاح عنثرة : حسبك فإنك تكذب أو لقد خدعك رأيك

فقال شديموب في عناد :

— لا بل أنت الذى يخدعه رأيه ، فلا رأى لمن أحب
يا عنتره . إنك تحبها وهذا يحملك على خداع نفسك ورؤية غير
ما تبصر . لن تكون عبلة زوجة لك ، وما هى بالتي ينبغى لك
أن تمنى نفسك بزواجها .

وكاد شيبوب يمضى فى حديثه لولا أن سمع أخاه يغمغم بلفظ
لم يتبينه فسكت حيناً ثم اتجه إليه سائلاً : أقلت شيئاً يا عنتره ؟
فلم يجب عنتره بل مضى فى غمغمته حيناً ثم نطق ببعض
أبيات من الشعر جعل يمد بها صوته فى رفق ورقة حتى انتهى
من إنشادها واتجه إلى أخيه وقال وهو يتنفس كأنه قد أراح
عن صدره ثقلاً :

— إننى أعذرك يا شيبوب فلست تقدر على أن تنظر بعيني
ولا أن نحس بقلبي . وقد تكون أسعد حظاً منى ولـكـى لا
أرضى أن أستبدل قلبك بقلبي .

إننى ساخط على هؤلاء جميعاً ولست أخشى أن يكونوا كلهم
على غضابا . ولست أبالى إذا هم علموا حبي فلقد كنت أكتمه
خوفاً على عبلة أن تحجب عني . ولـكـى لا أجد فى الحياة أملاً
إلا أن أحبها ، ولولا هذا الأمل ما بقيت يوماً فى حياتي . لست

أملك قلبي حتى أصرفه عنها ، فاني إذا رأيته أضاءت لي الآفاق
وإن كانت مظلمة ، وإذا تسمت ريحها أحسست ديب السعادة
وإن كان الشقاء يكتسني . وإذا حدثها عرفت البهجة وإن
كنت غارقاً في همومي . وإذا سمعت صوتها وقع عندي موقع
الباسم على القرحة الدامية . رأيت لأرق النساء من أهلها ،
وأخوض الحروب لأنني أحى قومها ، وأطاب العرو لأحلب منه
إلا أن فوز بيسمة من رضائها ، وأبذل ما يحرص عليه الرجال
لأنني لا أعرف شيئاً أحرص عليه غير محبتها . فهي عندي
غاية حياتي .

وعند ذلك قد صوته انقضاء فجأة وحده النسيم كما كان يحمله
من قبل متدحجاً متدققاً فقل عنترة :

— اسمع يا شبيب فإني أغني .

وأصاخ بسمعه لحظت ثم هام خفياً وقال متمهجاً :

— ألا تحب أن تقرب من مكانها لتسمع ؟

ثم جلب أخاه من يده والتجها نحو الخيام فلما اقتربا حتى
استطاعا تبين اللفظ وقف عنده فجأة وقال في صراحة مكشوفة :

— أما تسمع يا شبيب ؟ إنها أغني بشعري . إنها أغني بشعري .

ثم اندفع نحو الخيام وكان الفتيات والنساء وسطها يجلسن في حلقة حول النار فوقف في الظلام يسمع وذهب شديبوب نحو حيمته وفي قلبه قبضة يأس من ضلال أخيه .

٣

كان الصباح يصىء بأوار الشمس الباسمة في ذلك الربيع ، وكانت السحب تزين السماء بقطع بيضاء كأنها قطع من وعول نجد العصماء ، وكانت الأرض لا تزال رطبة من أثر المطر ، والعرار يسم بفوره الأبيض بين حشائش المرج الأخضر ، وقطعان الابل تسرح هادئة تحت نظر رعاتها . والنسيم الوديع يهب على وجه عنقرة وهو واقف على ظهر فرسه الذى يعدو تحته بغير رسن . وكان مقما في ذلك المرج مع سرح سيده شداد منتهزاً تلك الأيام ليمتع نفسه بالانطلاق في صفاء البادية الباسمة قبل أن يقبل الصيف بقيظه ويصوح العشب ويذبل الزهر . وطالت غيبته عن الحى وكان يمتنى نفسه أن يعود إليه بعد حين فيرى عبلة و ينعم بحديثها ويتنفس من النسيم الذى تتنفس منه قبل أن يخرج إلى منقجعات الكلا إذا حى حر الصيف .

ولكن زائراً أتى إليه في ذلك اليوم ففقط عليه متعته ، فما
 علت الشمس حتى رأى فارساً يسرع مقبلاً نحوه ، وتبينه بعد
 قليل فإذا هو أخوه شيبوب . وكان عنقته لا يتوقع مجيئه فأسرع
 ليلقاؤه وهو واقف على ظهر فرسه كما كان يحب دائماً أن يركب
 إذ يرعى الإبل في البر المسيح .

ولما صار قريباً منه ناداه في لهفة :

— مرحباً بك يا شيبوب !

ثم وثب عن ظهر الفرس قائلاً :

— خيراً ما جاء بك !

فقال شيبوب ضاحكاً :

— إنما جئت لأراك .

فنظر إليه عنقته في شك وقال :

— إن وراءك لأمرأ .

فقال شيبوب باسمًا .

— انك لتحس ما في نفسي قبل أن أنطق . صدقت

فقد جئت إليك بحديث .

فانتظره عنقته أن يبدأ ومضى شيبوب قائلاً :

— كان الحى بالأمس يموج بفرسان عبس .

فقال عنتره فى صيحة مكتومة :

-- وماذا دهى الحى ؟

فقال شيموب مبادراً :

— لم يكن شىء سوى ولية . ولية مالك لعمارة بن زياد .

فصاح عنتره فى صوت مخوق .

— وما بال عمارة ويلك !

فقال شيموب فى هدوء : إنه خطب عملة !

وكأن شيموب ألهم أخاه حجراً بهذه الكلمة فلم ينطق بحجواب بل أطرق ساهما وجعل يخرق الأرض برمحه . فقال له شيموب :

— كنت من قبل أحدثك فى خفة وفكاهة لأننى أعرف

كبرياءك ولا أحب أن أثيرها . ولكنى اليوم لا أرى مجالا

لخفة ولا فكاهة . وأحب أن أحدثك حديثاً يقطر جداً .

فنظر إليه عنتره وهو يكظم حنقه واستمر شيموب فقال :

— هذا مالك بن قراد يختار زوجاً لابنته ، وهو من هؤلاء

العرب الذين لا مفر لهم من أن ينظروا إلى الناس بأعينهم . وقد

أردت أن أسعى إليك بهذا النما قبل غيرى حتى لا تركب
الشطط لو بلغك من سواى .

فصاح عنتره :

— وأى شطط تعنى ؟

فقال تيبوب : لقد عرفت أنك سوف تكره هذا النما وأنت
سوف تحقد وسوف تتور . ولكنى أعيد عليك أنك تخدع
نفسك يا ابن امى . فهل لك أن تفكر فى أمرك وتحكم عقلك ؟
فأطرق عنتره حزيناً وهو حزين ثم قال :

— أنت تريد أن أحكم عقلى وأن أفكر فى أمرى . تريد أن
أعرف اننى عنتره العبد الذى لا يتيق به ان يتطلع إلى عبلة .
فقال تيبوب فى عطف : إياك بغيرتك فارس عبس ، وأنت
جدير بأن تكون من خير ساداتها . ولكن قضاءك قد ظلمك
واست بأول رجل ظلمته الحياة .

فانتمض عنتره وقال :

— وما لى أرضى بظلم الحياة يا تيبوب ؟ وما الذى يقيدنى
حتى أقوم على الحسف وأرضى بأن أبقى عبداً فى عبس ؟ ما الذى
يحملى على أن أحكم عقلك أنت فى أمرى ؟ ليس هذا حكم عقلى

أما يا شيبوب ، بل هو حكمك . أما أنا فاني لا أرضى لنفسي
أن أكون هناك .

فقال شيبوب هادئاً :

— وماذا تملك يا أخى ؟ هل تملك أن تحجر على مالك حتى
لا يزوج ابنته بمن شاء ؟

فصاح عنقرة :

— لست أريد ذلك يا شيبوب ، ولكنى أحب عبلة ولا أستطيع
أن أراها زوجاً لغيرى .

فقال شيبوب : إذن فحدثنى ماذا أنت فاعل وقد علمت نبأ
خطبتها .

فقال عنقرة فى حرارة : لست أدرى بم أحدثك يا شيبوب .
فأت تذكرنى بكل آلامى وكل شقائى . أعلم أبى فى نظر هؤلاء لا
أريد على أن أكون عبداً ، ولا أستطيع أن أحوص صورتى التى تقع
فى عيونهم وفى قلوبهم . ولكنى أملك شيئاً واحداً . أملك نفسى
التي لا ترضى . وسأكون فى المكان الذى أَرْضاه وإن كان ذلك
قسراً . إنك تحدثنى عن مالك . فلم لا تحدثنى عن عبلة يا شيبوب ؟
إنك لم تسمع نجواها كما سمعتها ، ولم تعرف حقيقة نفسها كما

عرفتها. فلا تواجهني بهؤلاء فلست أعرف منهم أحداً وإنما أحب
عبلة وأعرفها .

فقال شيبوب في عناد :

— أنحسب مالكا يزوج ابنته لك ويدع عمارة من زيادة ؟
ولو كان أبو عبلة غير مالك أنحسب أنه يفعل مثل هذا ؟ إنك
لن تجد غيري يحدثك بمثل قولي ولكني لا أحب أن أكرم عنك
نأمة من نفسى .

وكان عذرة يحاول أن يمسك غضبه . ولمح شيبوب علامات
ذلك الصراع بينه وبين نفسه فقال له في عطف :

— لا تحنق على لما أقول يا أخى . فوحي مناة أننى أشد
حرصاً عليك منى على نفسى . ولو كان الأمر لى اعرفت أن أقدرك
قدرك فأنت أكرم من كل هؤلاء وأشهم نفساً . وإليك الحامى
حاهم وسيد فرسانهم وأنت أجل عندى من أحسنهم .

فقل عذرة وقد ألامه عطف أخيه :

-- لست أشك فى مودتك وحرصك على خيرى . ولقد
صدقت إذ قلت إن مالكا لا يلام على رضاه بعمارة ، ولو كنت
مكانه لما رضيت إلا بما يرضى . ولكن ما بال قلبى وعبلة ؟

إننى أحبها ، ولا أقدر أن أحيا غيرها . ولو ذهبت لغيرى لكان
فى ذلك قتلى . فليس لى إلا أن أركب الوعر وأن أقدم على
كل خطر ، فليس فى كل ذلك إلا الموت وهو ما ينتظرنى .
وصمت لحظة ثم قال :

— وما بال سداد يابى على كرامتى ؟ لقد علمت أنه أبى .
قالت زبيبة ذلك وهى صادقة لم أعتد منها كذبا . فوحق مناة
لأعودن إليها فأسألها . فإذا قالت ذلك فانى عائد إليه لأنتصف
منه وإن كان فى ذلك هلاكى .

فصمت شيموب لحظة ثم قال :
— أوتحسب أنه ينصفك ؟

فصاح عنتره :

— انئن لم ينصفنى وأنا ولده لكان لى ظمأ .
ثم أخذ يفكت الرمل برمحه فى حنق .
فقال شيموب : أراك لا تدع هذا الوهم وإن كلمك ركوب
كل وعر .

فقال عنتره فى قسوة : إذا كنت بين قوم لا ينظر كل
منهم إلا إلى نفسه فلا حرج على أن أنظر إلى نفسى .

إن وهؤلاء جميعاً يدعوننى إذا اشتدت حولهم الكروب ،
ويلقون إلى بالسيف لأذب به عنهم وأحمى حرمهم . فلا حار بنهم
هذه السيف انتصافا لنفسى . لأحارب شداً إذا ضن على
باسمى ، ولأحارب مالكا إذا وقف بينى وبين حبنى ، ولأحارب
عمارة إذا تجرأ على أن يسلبنى حياتى . لأحارب لأحارب
لأحارب ! وإلا كنت فى الحق جديراً بأن أكون عبداً .

هلم يا شيبوب إلى الحى فالى لا أطيق المقام هنا .
ووثب على ظهر فرسه ولم يستطع شيبوب أن يرده عن
عزمه فقد انطلق به جواده الأبحر وأثار الغبار وراءه فلم يجد
شيبوب بداً من أن يركب ويلحق به عائداً إلى منازل عيس .

٤

دخل عنبرة إلى بيت أمه أزل شىء بعد عودته إلى الحلة ،
وكانت زبيدة منصرفة إلى غزلها وهى ساهمه . فلما رأت عنبرة
داخلًا وثبت قائمة وقالت له وهى تفتح له ذراعيها :

- مرحباً بك يا ولدى . متى جئت ؟

فلم يجب عنبرة بل ذهب إلى جاب من الخباء فرمى رحمه

وسيفه وجلس على فروة والحزن يمدو في معالم وجهه .
فقامت له زبينة :

— إياك حزين يا ولدى ، ولعلى أعرف سبب حزنك . بل
لعلى قد عرفت سبب عودتك التى لم أكن أتوقعها .
فمظر عنقرة إليها فاتراً فى حلق وقال :

— وماذا يجدينى أن أحزن أو أن تعرفى سبب حزنى .
لقد كان أولى بك لو عرفت أنك أنت السبب فى شقائى .

فتحرك وجه الأم وفارت الدموع فى عينها وقالت :
— أى ولدى الحبيب فذاك نفسى . ولو استطعت أن
أذهب عنك الحزن بعقد عيني لكان أحب شىء لى أن أفقد
عيني . ولو قدرت على أنذل حياتى لكى أهب لك السعادة
لماذا راضية .

خضع عنقرة وأطرق حينئذ ثم قال لها :
لن يجدينى ذلك شيئاً أيتها الأم التى جئت على . ولقد جئت
إليك لكى أسألك مرة أخرى أن تصدقيني حديثك .
فقامت زبينة :

— سلتى ما بدا لك يا ولدى فأنا لا أحب أن أكذبك .

فقال عنقرة في مرارة :

— لست أحتمل بعد اليوم أن أعيث في دنيا تحيط بي فيها
هذه الأكاذيب ولا أفرقها عني . إذن فتمسك لهذا السيف الذي
أحارب به أعداء عبس لأنه يكون سيمًا أجيرًا .

فقال زبينة هادئة :

لقد عرفت يا عنقرة أني لا أكذب ، ولو أردت أن أكذب
على الناس ما كذبت على ولدي . أنتحسب أنني أعرف أمرًا
أخفيه عنك ؟ لقد طالما أحبرتكم بما سمعت من عبس ومن أمها
وما سمعت من نساء عبس ومن امرأة أبيك سمية .

فصاح بها عنقرة في وحشية :

— تقولين امرأة أني ؟ أما هي امرأة شداد ؟

فقال زبينة : هي سمية امرأة أبيك شداد .

فصح عنقرة :

إنك تكذبن يا امرأة .

فبرزت زبينة من أهل البها ورمت بالمهزل من يدها في غضبة
مكثومة ، وبسطت يديها نحوه وعيناها معلقتان في وجهه ،
وفات :

— أى عنقرة ولدى ! إني لا أزال أذكرك طفلاً وأنت تحبو
مرحاً ضاحكاً تعبت بالكلاب والخلان . وأذكرك صبيّاً تجبذ
وفصيل الماقة كألك قط تداعب فأراً . وأذكرك فتى
تهز الخربة كما كان خالك وجدك يهزأ منها . نعم خالك وجدك
أخى وأبى . هؤلاء الذين عرفوني وعرفتهم ولم يقولوا لى يوماً
كما تقول لى « يا امرأة » . فإذا ما كبرت يا ولدى وصرت شاباً
فارساً أراك تبعد عني وتطرحني وتخطئني هكذا « يا امرأة » .
ثم وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكي .

فلان عنقرة وقال يستمع منها :

— إن قلبي يتمزق والغیظ ينفجر مني .

فقات زبيبة :

— إيلك يا عنقرة تدمي قلبي إذ أراك تنظر إليّ كما ينظر
هؤلاء ، كما ينظر أبوك وأعمامك وأبناء أعمامك إذ يتولون لى
« قومي يا زبيبة إلى هذا القعب وملايه لبناً أو قومي إلى هذه
الشاة فاحلبها » وما كان ينبغي لك أن تكون متهم بـ « لست
زبيبة الأما أمام نفسي . إني أنا الحرة الحبشية (تانا) ابنة
(مييجو) ولن أكون سوى الحرة (تانا) ابنة مييجو .

وكان عنتره يسمع قولها مضطرباً ويزأر زئيراً مكتوماً ، ثم قال
في شبه صريحة :

— ألسنت أنت التي أتيت بي إلى الحياة لكي يصفعني كل
من يلقي بقلبه بقوله « يان الزنا ؟ » وحق مناة لو كنت حرة
وما كاد يتم قوله حتى صاحت زبيبة في حنق :

— ويلك يا عنتره ! لا تنطق بهذا القول أمامي . إني أمقت
قومك وما يقولون وأمقت آلهتهم التي يقسمون بها . لا تنطق
بهذا القسم أمامي فإنني عرفت ديناً غير هذا الدين ، واسماً أحب
إلي من هذا الاسم ، ولو خيرت بين الحياة والمسيح ما أحببت
الحياة .

ففتح عنتره عينيه في دهشة ثم صاح :
— وما هذا المسيح الذي تهرفين به ؟ أما منعك من أن تأتي
بالولد المتغذي به في المهانة بين هؤلاء الذين يقولون أنك تمقتهم ؟
إنني أطعن أعداءهم وأعف عن حرمهم وأتكبر أن أخاصم أحداً
في اقتسام غنائمهم ، وهم يتقاتلون عليها ، ومع ذلك فأنا عندهم العبد
ابن زبيبة .

ثم اتقد غضبه وانفلت لسانه من زمامه فقال في وحشية :

— أمسكى أيتها المرأة دموعك التى تسحر قلبى . ودعيني
وما أريد فأجيبى سؤالى . أنا ابن شداد حقاً ؟
وإنى أعيد قسمى بمناء لكى املأ قلبك غيظاً وحقداً وغماً
كما أتيت نى إلى حياة لا أجد فيها إلا غيظاً وحقداً وعمماً .
أقسم بمناء لىكى أجرك الغصص ائن لم تصدقينى لأضعن هذا
السيوف فى قلبك ثم أديره بعد ذلك إلى قلبى . أنا ابن شداد حقاً ؟
وكانت ربيعة تسمع قوله وهى مكبة على يديها تمكى ، ثم قالت
وهى تنسج :

أما قلت لك إنيك ابنه ؟ أما قلت لك أنت ابن شداد ؟ أما
أقسمت لك بالمسيح يوماً أنك من صلبه . انك ابن شداد ويكذب
من يقول غيرها .

فصاح عمتة مرحراً :

— ألا كفى عن ذكر اسمه فانه أشد الأسماء كراهة عندى .
كفى عنه فانك كلما ذكرت اسمه أحسست مثل وقع الشياط على
طهرى . وأقسم بمائة لئن كان أبى لأحمله على أن ينسبى إلى اسمه ،
وإلا كان لى معه شأن تتحدث به قبائل العرب فى وادىها .
وسأضرب فى الأرض حيث تقذف نى ، وسأصارع الأسود

وأنتزع منها فرائسها ، وسأقطع السبيل على كل عابر وأسلب الأموال من كل مالك ، ولن أستقر حتى ألقى منيتي كما يلقاها السكلب العقور أو النمر التائر .

فتخاذلت زبيمة ومدت يديها في تضرع وقالت :

— إنه أبوك يا ولدى ، وقد طالما حدثتك بقصته وأنت تمكر ولا تصدق . إننى أدكر يوم رأيته كأنه كان بالأمس القريب فاسمع حديثي وصدقني : كمت مع الركب أنا ومن معي من نساء وأطعمال لا نكاد نرى ما أمامنا من البكاء . فقد جئنا إلى هذه الأرض مع قوم خطفونا كما تخطف الأنعام . وكاوا يلقون إلينا في الطريق بقطع من العظام وفصالات من الطعام فلا نجد لها شهوة والجوع يقرض أحشاءنا ، حتى كاد الموت يأتى علينا . وكانت جثث الموتى تلقى على جانب الطريق كما تلقى جيف الكلاب ولا نجد لأنفسنا حيلة إلا البكاء .

وكان أحوك شيموب لا يزال طملا ، وكان جرير ابني لا يزيد على عشر سنوات . أواه ! إننى لا أملك نفسى كما تدكرت كيف كانت رجلاه الصغيرتان تدميان من السير فوق الحجارة ونحن نسير فى تلك الصحراء المهلكة لانعرف لها سبيلا .

وأخيراً هبط علينا أبوك شداد في جماعة من عبس جاءوا ليسلبوا
ركب الطغاة الأنذال الذين جاءوا بنا. وكنا نحن الركب والغنيمة.
ولكن شداداً كان بنا براً كريماً وكان بي حفيلاً رطفلي رحيمًا.
ناختارني فسكنت له أمة وكان ابناي له عبيدين . ولست أومه
على ذلك فتلك عادة هؤلاء العرب قومك يا عمتره .

فنظر إليها عنتره وقد هدأت ثأثرته وقال ساحراً :

— أحم حقاً قومي ؟

فقامت زبيدة : — هم قومك يا ولدي ولا أكدمك تبيئاً .

إني أرضى بالرق لأنني لا أرى لي في الحياة أرباً سوى أن
أراكم أمامي .

وسمع عنتره قولها شاخصاً ببصره إليها حتى إذا مفرغت دلت
يديها واقتربت منه فوضعت يمينها على رأسه تمسحه في عطف
وتهنئته بالبهكة . فخصع عنتره لها ووشت من عييه دبة . در
إليها فمسحه . ثم تخلص منها برفق وقل بصوت ضعيف :

— لا عليك يا أمه فإني قسوت عليك . وانقد عطف قلبي
على هذا الرجل بعد وصفك فإني أحسن له رتيه . وسأعصى بإيه

لأحدثه في أمرى وأمرى . فلست أَرْضَى أَنْ أَكُونَ مِنْ صُلْبِهِ ثُمَّ
أَبْقَى فِي بَنِي عَبَسَ رَقِيقًا .

ثم وثب واقفًا ووقفت أمه تتعلق به ، وقالت :
— لا تفعل يا ولدى ، لا تفعل ذلك أبدًا . إنه لن يجيبك إلا
بما يجيب به العربى عبده . إنك عبده لأنك منى . تريث في
الأمر حتى يقضى الله قضاءه ولا تيأس من رحمته . فأبى أحس
أباك مدرك ما تبغى .

فقال عنقرة في صرامة :

— ذرينى أذهب إليه فأبى لن أثير قلبه . سوف أخضع له في
الحديث لعل قلبه يلين لى . ولست آيساً منه فأبى ألمح فيه أحياناً
رقّة ومحبة .

فتعلقت به ز يديه مرة أخرى وقالت :

— إنه لن يرصى خوفاً من قومك أن يعيروه بك .

فقال عنقرة في عناد :

— لن أقعد عن ذلك وإن كلمنى حياتى . فإما ان أكون
ابنه وإما أن أهيى على وجهى فى الأرض الواسعة ابتغاء حريتى .

فقلت زبيبة : تريث يا ولدى بحق بماذا أقسم عليك حتى تطيعني ؟

فنظر عنقرة إلى وجه أمه جامداً وقال :

— لن أنفك أطلب حتى أبلعه يا أمي . ولن أنحمل هذه الحياة وإن كان في ذلك تحطيم قلبك وقلبي .

ثم تخاذل وجلس على حجر عند مدخل البيت ووضع رأسه بين كفيه وعاب في صمته حيناً . وكان يردد في إطراره أنغاماً خامة ويهتز في أثناء ذلك اهتزازاً شديداً .

فاقتربت أمه منه وجعلت تمسح رأسه بيدها وهي صامتة حزينة ، حتى مضت ساعة ثم رفع رأسه وجعل يتغنى بأهارج من شعره وأمه تنظر إليه في رقة وتستمع إلى غناؤه حتى انتهى من إنشاده فقلت له :

— إذن فأنت مقيم هاهنا . أنتحمل الحياة في أرض لا تقيم عبلة فيها ؟

فصاح عنقرة : بل لا أتردد في تحطيم هذا القلب الذي يتعلق بها وأى جدوى في بقائي ههنا . لست إلاّ عبداً ؟ انني عند ذلك

لا أزيد على أن أكون مثل الكلب الذى يتطلع إلى النجم
وينبجه وهو أذل الأحياء .

فقال زبيبة ضارعة :

— أما تترفق بنفسك يا ولدى ؟

منظر إليها عنثرة نظرة سريعة ثم ذهب عنها مسرعاً يدمدم

فى وحشية :

— سوف أذهب لأنزع عن نفسى عارها .

ولم يلمت أن عاب بين البيوت وأهوت زبيبة على الأرض
متهالكة تنظر فى أعقابه والدمع يملأ عينها .



كان شداد بن قراد فى خيمته يغنى أغنائه بعد الغداء عند ما
ذهب عنثرة يطلب أن يراه . وكانت امرأته سمية جالسة مع
مروءة ابنة شداد تمحدثان وهما تغزلان الصوف بعد أن فرغت من
خدمة الشيخ الصارم . فلما أقبل عنثرة نظرت إليه سمية
وقالت فى دهشة :

— هذا عنثرة هنا ؟

فمظرت إليه مروة وقالت هامة :

— لقد طالت غيبته عن عبلة فخره شوقه .

فقلت سمية عابسة :

— صه يا مروة ! أما تدعين عنفك عليه ؟ أما رأيت كيف

قسا عليه أبوك من أجل مثل هذه الكلمة ؟

واقترب عمترة منهما وحلس وهو صامت فقلت له سمية :

— مرحباً بك يا عمترة ! لقد طالت غيبتك .

فقال عمترة في هدوء : جئت لأرى سيدى . أهو هنا ؟

فقلت سمية ناظرة إلى الخيمة .

— إنه هناك على عادته فى مثل هذه الساعة . فهل تظنره ؟

فقلت مروة فى خبث وهى مستمرة فى غرلها :

— لقد سهر بالأمس فى دار عمى مالك وأظنه لا يصحو اليوم

إلا مساء .

فقال عمترة ناظراً إليها : وأنت أما كمت فى دار عمك ؟ أما

كتم جميعاً فى دار مالك ؟ أما كتم جميعاً تحبون آل زياد ؟

فقلت مروة : ولو كتمت هما لما فأتاك أن تكون معاً .

فمظرت إليها سمية خفية فى شىء من الحيق بأجابه عمترة :

— لقد تعودت يا مروة أن أذهب حيث تذهبين أنت
وسيدتي هذه سمية . أليس هذا واجب عبد شداد ؟

فضحكت مروة وقالت ممعنة في خبيثها :

— كما تعودت أن تحمل اللبن إلى عبلة كل صباح لتشرب
منه أول الناس .

فصاحت بها سمية قائلة :

— أما تمسكين عن هذرك أيتها الحمقاء ؟
فقال عنقرة هادئاً :

— لست أحمل اللبن لعبلة وحدها . إنما أنا عندكم يا مروة
فأنا لا أصنع إلا ما يجب على العبد أن يصنع .

فلم تبال مروة غضب سمية وقالت ضاحكة :

— أما قلت لنا عند الماء إنك عبد عبلة ؟ إنما انت عبد عبلة .

فقال عنقرة : اذكر ذلك يا مروة فهل أغضبك قولي ؟ إنك

انمة شداد ولا حاجة لي أن أقول للناس إنك سيدتي ، فهم يعرفون
انني عبد شداد .

فقالت سمية في غضب : الا حسبك يا مروة . إنك تعرفين

أن عنتره فارسنا وحامينا ، وهو ابن زبيبة التي تحبك وتحنو عليك .

فقال عنتره ياسمًا : ذريها تعبت لى يا سيدتى . إنها تعرف مودتى لها وحرصى على رضاها ، وإن أقسى كلماتها عندى أحب من حديث سواها .

فقامت مروة فى عناد . لو سمعتك عبلة لأغصها ذلك . وأنت لا تجرؤ على مثل هذا القول لو كانت عملة تسمع . ألا تذكر الشعر الذى أنشدته ؟

فقال عنتره لى شىء من الارتباك :

— إننى أتغنى به صباحاً ومساء .

فبادرت مروة ضاحكة وقالت :

— ولكم لا تنشد إلا إذا كانت عبلة حاضرة .

فنظر إليها عنتره وقال فى شىء من الحنق :

— لعلك تريد أن تقولى إننى أحبها . ألا فاعلمى يا مروة إننى أحبها . وإننى أقول شعرى لها . ولقد كنت أكمكف من شجونى واكنتم نائرة وجدى حذراً أن يتحدث أهل الفضول عنها . ولكنى اليوم لا أبلى . فها هو ذا عمارة يخطبها وأنتم

جميعاً تذهبون إلى وليته لتخدموا أهله ، وأنا أرى إبل شداد في البر وحدي . فلتتحدثي ولتحدث فتيات عبس جميعاً اني أحبها ، وليعرف عمارة بن زياد أن عبلة عندي في مكان الروح واني سأقضى سائر حياتي أغنى بحبها .

وكان صوت عنبرة قد علا فقالت سمية تحاول تهدئته :
 — لا تغضبك هذه الحمقاء يا عنبرة فما هي الا الغيرة تدفعها .
 فصاحت مروة : — أتدفعني الغيرة من عبلة ؟ وهل هي خير مني ؟

فقال عنبرة وقد عاد الى هدوئه :
 ليس يسرنى وحق مناة أن تكون مروة زوجة عمارة
 ابن زياد . ذلك الفتى المعجب بنفسه الذي يسطر الى صورة
 وجهه في زير الماء كما يفعل النساء .
 فقالت مروة في غضب وعتب .

— ومن قال لك اني أرضى رواجه ؟
 وعند ذلك أطل شداد من خيمته ونظر حوله وهو يتمطى
 قائلاً : ما هذا الصراخ يا هؤلاء ؟
 ثم وقع نظره على عنبرة فقال في تودد :

— أهذا انت يا عنتره ؟

واتجه اليه عنتره قائلاً :

— كنت انتظر ك يا سيدى فهل لى ان أحدثك حديثاً ؟

فقال شداد وهو يسير خارجاً :

— رانى كذلك أحب أن أحدثك . وقد كنت على عزم

أن أثبت فى ظلمك .

وسارا معاً الى جانب من الشعب فانتحيا فيه جانباً عند

مهبط السيل ، وجلس شداد على قطعة صخر ملساء وحلس عنتره

عند قدميه ووضع راحته تحت رجليه .

وقال شداد : اهلك سمعت بما اعتزمت عليه عبس من

غزوه طيء .

فقال عنتره مطرقاً : كمت فى مراعى اهلك ولم أسمع إلا

بولية أحيك مالك .

فمطن شداد إلى ما تحت كلمته ، وقال متحاشياً الخوض فى ذلك

الحديث : أ كمت تحب أن تفضى إلى بقول ؟ ابدأ أنت

بحديثك يا عنتره .

فقال عنتره وهو يغالب ما يشور فى نفسه :

— اننى لا أستطيع يا سيدى أن أنكر فضلك على . أنت فارس عبس وشيخها وأنت ملاذ الخائف ومطعم الجائع ومكرم الصيف . وقد حدثتني أمى عنك أحاديث طويلة منذ كنت طفلاً فقال شداد عابساً :

— قل ما تريد فانى سامع .

فقال عنتره فى حرارة :

حدثتني أمى عن رحمتك بها وبرك بأبنائها ولكمها تقول لى قولاً لم أسمع منك أنت يا سيدى .

فقال شداد فى صرامه : قالت لك إلك ولدى ؟

فقال عنتره ثامناً : — قالت لى ذلك منذ كنت طفلاً .

كنت إذا لعبت مع أطفال الحى وغازبتهم سموى بأمى وقالوا لى أقوالاً لم أفهمها ، فسكنت أنتقم لنفسى وأصرهم فلا يزيدون الا جرأة على ويجمعون فى حلقة يعيروننى ويسخرون منى . فاذا ضقت بذلك ذهبت الى أمى فشكوت لها وسألتها عن أمى لى أخبرهم به كما يعاخذوننى بأنهم ولكمها كانت لا تزيد على أن تسكى ثم قالت لى يوماً اننى انك ، فأحسست الكبرياء تملأ قلبى . ولكن واسمها ! كمت أذهب

إليك ولا أجرؤ على سؤالك ، ولم أسمعك يوماً تناديني قائلاً
« يا ولدى »

فقال سداد في جود : وماذا تريد بقولك هذا ؟
وأجاب عنتره : لست أريد إلا ما يريد المرء من أبيه إذا
كان أباه حقاً

فقال سداد : أليس أكرم مكانك يا عنتره ؟ أليس أدخلت
على أهلي ؟ أليس أركبتك معي إذا سرت إلى الغزاة ؟ أليس أناجيتك
كلما اعتزمت مع قومي أمراً ؟ انني ادعوك إلى حماية الحمى إذا
طرق الطارق ؟ أليس تأكل معي وتجلس حيث أجلس مع
سادة عبس وتحدث في مجلسي وأبصرك إذا ظلمت وأدفع عنك
إذا ظلمت ؟ فماذا تبتغي مني بعد ذلك إذا كنت أباك حقاً ؟
فقال عنتره في رقة : لست أنكر فضلك فإني أذن لجحود .

إليك لتكرمني ولا تجعلني في مكان هؤلاء العبيد الذين
يرعون إليك معي . وقد كنت تملك أن تردني إليهم إذا شئت ،
وتذل تلك النفس التي تقول أمي إنني ورثتها منك . ألا تقول
لي انني ورثت هذه النفس منك ؟ قل لي هذه الكلمة يا أبي ،
بحق سيمك ورمحك حتى أسمعها من بين شفطيك أنت .

فقال شداد متبرماً : إنك تلج لجابة لا أحدها .
 فنظر اليه عنتره في حيرة ، وقال : لست أحب اللجابة
 يا سيدى . ولكنى لا أحب لك إذا كنت أبى أن تفكرانى .
 إنك إذن رجل تسرف فى نفسك وفى تلك البضع التى تخرج
 من صلبك .

فقال شداد مغضباً : حسبك أيها العبد أمسك لسانك .
 فقام عنتره ومد يديه نحوه ضارعا ثم قال :
 أيها البطل لست أحب أن أغضبك . ولكنى است أرضى
 لك أن تقذف بى بعيداً عماك إذا كنت من دمك . ان لى
 فى الحياة حقاً ، ولكنى أجد الحياة تنفكر لى . كيف بى أن
 أعيش فى قيد الرق وما الحياة تستحق أن أحييها إذا هى خلت
 من الحرية . إننى أحب الحرية لأننى أحب الحياة . وأحب أن
 أعيش كالنميمة أقول «نعم» حيناً وأقول «لا» حيناً إذا بدالى أن
 أقول «نعم» أو «لا» . أحب أن أكون مثلهم فى ميزان الأحرار
 وأعائدهم وأعائدهم على أننى أحد بنى عبس . أترضى لنفسك
 أبها البطل أن تعيش عبداً ؟ أما كنت تؤثر أن تجاهد فى سبيل
 حريتك حتى تفوز بها أو تخر صريعاً فى جهادك لها ؟

واقعد كنت أرضى أن أكون عبداً لو كانت لى النفس التى
ترضى بذلك ؛ فاذا كمت أى فان دمك الحر هو الذى يشور
فى قلمى .

فلان شداد بعض اللين وئال :

— إنك تجرعى الغيظ بما تلقيه على من هذا القول الذى
ينطالق إلى أذى كأه جمر الغصا .

فقال عمتره فى رقة :

— قلت لك إبنى لا أحب أن أغضبك ولا تغضب على إذا
دفعى يضى إلى مواهبك . لست أكره أن توقع فى فمذهب
على تلك الشجون التى تؤرقى فى لى وتذنى فى نهارى وتجعل
حياتى بغصة إلى نفسى . لست أكره أن أفارق هذه الحية على
يدىك فأخلص من هذه السبة التى يرددها الناس كلما وقفت
بينهم عند أول غصة يغضونها . فهم إذا عجزوا عن مهاخرتى
بأنفسهم فخرروا على بأنائمهم وقالوا لى يا ابن الزنا ولو عرفت أى
لماخرتهم به وأسندت إليه ظهرى . حتى أنت يا شداد تقذفنى
بهممك إذا غضبت وتدعونى عبداً كما فعلت الآن معى . بل
إنك لتسب أذى وتطعن فى عرضها ولقد كنت جديراً بأن تكون

أبعد الناس عن إذلالى إذا كنت أبى . فهل تكذب أُمى إذ
تقول لى إننى منك ؟ أم هى تعلم أنها كانت فى كنفك ثم
اختانتك فى ولادتى ؟

فصاح شداد فى غيظ : أما قلت لك أمسك ؟

فمضى عنتره فى عناد :

لك أن تنكر أنك أبى إذا كنت تعلم أننى لست لك ولداً .
ولو فعلت ذلك لوجدت عنك مندوحة ياسمى . فإنى أقدر على
أن أضع ذباب السيف فى صدرى حتى يخرج من ظهرى وأخلص
من هذه الحياة عامداً ، فلا تغالنى تلك الوصمات التى يلطخ بها
جبینى . ولكنى لا أقدر على أن أدعك وأنت لا تنكر أبوتى .
فلا بد لك من إحدى خصلتين : إما أن تقرّ بأبوتى وإما أن
تنكرها .

وكان شداد مطرقاً فى أنفاسه - هذا الحديث متردداً فنظر إليه
عنتره وزاد طمعه فى لينه ومضى قائلاً :

— وإبنى فوق ذلك أقدر على أن أذهب عن هذه الأرض
فلا أقيم فى ديار لا أعرف فيها إلا بأننى العبد المسخر الذى يقاتل

من أجل سادته ، ويغنم لهم الغنائم ، ويؤجر على حمايتهم بالطعام والشراب والجلوس في مجالسهم .

لست أرضى لنفسى أن أكون عبداً لك تملكنى كما تملك هذه الإبل وهذه الخيل . وإننى قادر على أن أمنع نفسى وأفوز بحريتى لأننى قادر على أن أمنع حرمكم وأزود عن حريتكم . هذا سيفى يحارب فى سبيل مجدكم ، وإنه لسيف عاق إذا كان يخدمكم ويتخلى عنى .

فرفع شداد رأسه بغتة وقال :

— أتمنئُ عليما بحمايتك أيها الشقي ؟

فنظر إليه عنقرة ثابِتاً وقال :

— لست أمن عليك ولا على أحد بحمايتى . ولكنى أقول

الحق الذى لا تستطيع أنت أن تمكره . أبى أغزو وأتقدم الصفوف لأقتحم العدو فى صدرها . وأجرؤ على لقاء الموت إذا سكص كل فارس عن لقاءه . وأغنم الغنائم لكى تقسموها فيما بينكم فإذا منتم على نصف منهم رأيتم أن هذا إيثارى واعتراف بحقى . وإنى لأبذل مافى يدى تكبراً عن المال، وأعف عن الحرم تسامياً عن الدنيا . واست أريد بهذا القول إلا الحق، فإذا كان

هذا يغضبك منى فلست بعد هذا أذكره . وحسبى أن أباعد
 بينى وبينكم فلا أكلسكم من أمرى مشقة . ولكنى أحب منك
 خصلة لا أعدوها حتى تنكر أوتى . فإذا كنت أبى فالحقنى بنسبك
 كى أعرف نفسى ويعرف الناس حقيقتى . وإذا كنت تعلم غير
 ذلك فاصرفنى بكلمة فلا أعود إلى خطابك ولا أضدع أذنيك
 كلمة منى . ولكم قد زعمت للناس يوماً أنك أبى . ألا
 ذكر يوم اختلف قومك على من ذكمت طائلاً وأيت إلا أن
 يحوزنى ؟ ألم تقل لهم عند ذلك إلك أبى ؟ أما كدت تقابل
 بناء عمك من بنى عيس عند ما أرادوا أن يجعلونى فى بعض
 صيدهم من الغنمة ؟ لقد قالت لى زبيدة هذه القصة ، فكدمها
 ذا شئت ، بل كذب نفسك إذا استطعت أن تقول كذباً .

وما كاد سداد يسمع هذا حتى بلغ به الغيظ مبالغه ، فلمس
 قبض سيفه وقال فى صيحة عنيفة وهو يتب قائماً :

— وحق مناة واللات والعزى ما صبرت على أحد صبرى عليك
 بها العمد الشقى . ولست أدرى ما الذى يمنعنى من سفك دمك
 بها العاق الجاحد وأنت تقر عنى منذ اليوم بقولك وتجهننى بسبابك ؟

إنها لمقيصة أحسها في نفسى أن أرق لك كلما هممت بأن أغمد
هذا السيف في أحشائك .

وفرع عنقرة سيفه من حائله ورماه بعيداً ثم وقف وفتح
صدره الواسع وقال بصوت أجس :

— أظهر ما يشور في قلبك ولا تكتم غضبك ، فإنك إن
فعلت خففت عني ثقل ما أحمل من حياتي . إني أحرصك على
قتلى فاست أريد أن أحيا تلك الحياة التي تريدني عليها . اقتناني
وأنت هادئ مطمئن النفس لأنك تريدني من تلقائي .

وإذا رددت عينيه وعاد إلى انصخرة جالس عليها صامتاً وهو
يلهث مما في صدره ثم قال بصوت فيه ربة العتاب :

— أنت تعلم أن هذا الأمر لا أملكه وحدي .

فصاح عنقرة كمن أحس بالنجاة :

— إذن فأنت تعترف بي

فقال شداد في حزن :

— است أنكر أنك ابني . ولقد علمت أنني آثرتك منذ
كنت طفلاً وحنوت عليك وأمنت إليك . ولكن لك أعماماً
وأخراً وبنى عمومة ، ولّى أصهار وأخوال وكلهم يملكون من هذا

لأمر ما أملك ، فلا أقدر أن أصرفهم عنه . إنهم يملكون أن غضبوا على وعليك إذا ألحقت بهم المعرة بانتسابك .
وأطرق الشيخ واجماً ووضع رأسه بين كفيه . فقال عنقرة
ن ضراعة :

أتكون معرتك أن تنسب إليهم عنقرة ؟
فرفع شداد رأسه متردداً وقال :
— أمهلني يا عنقرة ، ولا تقس عليّ . إنني لا أقدر على أن
فرط في متلك فقد عجز الأحرار عن ولادة قرينك .
فقال عنقرة في نغمة يأس :

— فأنا إذن عنقرة العبد حتى يرصى كل هؤلاء ؟
فقال شداد في تردد :
— تريث بي حتى أحملهم على رأيي . تريث يا عنقرة ولا تعد
لي حديثك هذا . وتعال أحدثك الساعة عما كنت أود أن
بدأ به حديثي .

فقال عنقرة في حنق :
— أتريد أن تحدثني في غزو طيء ؟
فقال شداد : تعال أحدثك وإن تجد مني إلا ما ترضى .

فصاح عمترة :

— فأنا العمد حقاً إذا رضيت أو سمعت منك . أما وقد
أبيت يا سيدي ألا أن أبقى عبداً فلن أكون لك إلا عبداً
حتى يرضى كل هؤلاء فيهمونني حريقى .

سأعتزل هذا الحى وسأقنع منك مما تعطى . أنا أعرف الآن
أنك أئى لأملك قلبها بلسانك ، فليس لى أن أتهم زبينة منذ يومى .
وسأرضى عن الحياة وإن أطعن قلبى بيدي . سأبقى حياً فإن لى
أملاً لا يزال يحملنى على الحياة ، وإن أحس بعد اليوم فى قرارة
نفسى عاراً .

واسكنى لن أبقى هاهنا . سأذهب إلى مراعيك لأكون
هناك مع العبيد أمثالى . أما الحرب فحدث عنها سوى .
ومال يأخذ رحمه وسيفه فقال شداد فى دهشة :
— أذلك عمترة الذى أسمعته ؟

فصاح عمترة : نعم هذا عمترة العبد . هدا عبدك يا شداد
بن قراد . سأذهب إلى البر لأرعى إبلك وأحلب نياقلك وأدفع
الذئب عن غنمك . وسأجعل رحى وسيفى لمصارعة الوحش ، إذ
لا شأن لمثلنى بالغزو والحرب . ولن ينبغى لى أن أقف دون

الحرم يوم يدعو الفزع لأن أئى لا يرضى لى ألا أن
أكون عبداً .

وإذا بدا لك يوماً أن تنادى عنقرة فلا تدعه إلا السكى يحمل
لك قعباً من اللبن، أو السكى ينجر لضيفك جزوراً، وستجدنى لك
كما شئت . ولن أملك قلبى هذا من محبتك لأنه لا ينكر أبوتك .
سوف أكون عبدك أحفى عنك طرئى وغضى وسوف أدير
عينى إذا نظرت إلى حتى لا تلمح رميض غيضى ، وسوف
لا أجهر بذات نفسى تحت سمعك، ولا أنحدث عنك إلا من
خلف ظهرك ، فإذا قربت منى فلن تسمع منى إلا ألفاظ الوفاء
والولاء . هذه شيم الحميد فلا تنتظر منى سوى شيم الحميد يا بطل
عبس وكريمها . يا سيدى شداد . هأنذا أخضع لك وأدعو مناة
أن تحمضك من سيوف الأعداء . وهأنذا أقبل قدميك تذلاً .
ولما قال عنقرة هذا أهوى إلى قدمى أئى، فجأة وقبأهما ، ثم
نهض مسرعاً وذهب كأنه يهرب من عدو ، حتى احتفى وراء ثدية
الوادى وخرج إلى الصحراء .

كان عنقرة واقفاً على ربوة ينظر إلى الحى المضطرب تحت
عينيه ، وكانت خيل طيء تحيط بالمبيوت من كل جانب وفرسان
طيء يضطربون فى أنحاء السهل يحاولون أن يدفعوا العدو
فلا يملكون معه شيئاً لأنه غمرهم بالعدد ، وكان أكثر فرسان
عبس قد خرجوا مع الملك زهير بن جذيمة العبسى فى غزوة
إلى بلاد طيء ، ولم يتركوا فى الحى إلا عدداً قليلاً مع شداد
وأخيه مالك وجماعة ضائلة من شيوخ عبس . وما هى إلا
ساعة حتى دخل العدو فى أرقه الحى الصيقة بين المبيوت ، وجعلوا
يقطعون الحمال بسيوفهم ويقوضون الدعائم وينزعون الأوتاد
ويدرسون من ينقاهم من أطفال ونسوة . وانفرط عقد العبسميين
فصاروا يتدافعون ويتراحمون فى دعر وكلما انجهوا وجهة وجدوا
العدو يسد سبيلهم فيتردون حفاة ، وهم لا يمسرون ما دونهم إلا
بعد أن يصطدموا به ، وتمات الأمر من أيديهم حتى صارت رضى
المعركة تدور بين حصاه المبيوت منقوضة ، فكسا فرسان عبس
يخبطون ساءهم وأطعمهم فى عماية المعمعة . وكان عنقرة ينظر إلى

العجاج الثائر وقلبه يشب في صدره ، حتى لقد هم بالنزول عن الربوة ليشارك قومه في القتال ، ولكنه كان كلما هم بذلك عاودته ذكرى حنقه على قومه فيردد في صدره أنه تشبه الزمجرة ويحمل نفسه على البقاء في مكانه قسراً .

ومرت بخاطره صورة ذلك اليوم الذي أقبل فيه العدو إلى ديار عبس وهو معتزل في ذلك المكان يرعى إبل شداد ، فخرج إليه جمع من الفتيات يدعونه لنجدة قومه ، فلم يستطع أن يتمتع عن النجدة ، ونزل إلى العدو فقاتل في صدر العرسان حتى هزم العدو واستنفذ منه ما كان حازه من الغنائم ، وفك أسر من كان أسراً . فما هو إلا أن فر العدو حتى أقبل قومه فاقنسموا الفء الذي غنمه هو من العدو ولم يدعوا له إلا نصف سهم قائلين له إنه عبد شداد ، ولا ينبغي له أن يهوز بسهم فارس كامل . مرت بخاطره صورة ذلك اليوم وصور أخرى مثلها وتذكر كلمات أبيه إذ قال له إنه لا يستطيع أن يلحق المعرة بقومه بأن ينسبه إليهم فامتأ قلبه حقداً وشماتة ، وأحس مرارة ما تجرع من الغصص طول حياته كلها في تلك الساعات التي وقف فيها يتأمل المنظر المؤلم .

ولكن خاطر آخر خطر له جعل المعركة الدائرة في نفسه أشد
هولاً من المعركة الدامية التي كانت تدور بين حطام البيوت . فإن
صورة عبلة لاحت له وخيل إليه أنه يراها تحت سنابك الخيل ،
أو أن فارساً من طيٍّ قد عدا عليها فأخذها أسيرة لكي يتخذها
أمة له كما أخذ أبوه سداد زبيبة أمة من قبل . وأحس دافعاً قويا
يدفعه إلى النزول فاحذر عن الربرة حتى بلغ مكان فرسه الأبحر
ووثب عليه وهزمه متجهاً نحو ميدان المعركة ، ولكنه لم يسر إلا
قليلاً حتى لوى عنان "مرس وعاد إلى الربرة وجلس فوقها ينظر
إلى السهل كأنه يتمتع عينيه من طحن قومه في القتال ، وأخذ
يكابر نفسه ويراجعها بأنه لا يزيد على أن يكون عبداً يرعى
الإبل ويتمن عليه سداد بأنه يركبه معه ويجلسه في مجالس الأحرار
من قومه . وما كان له أن يتطوع بالقتال عن سادته الذين
لا يعرفون له بينهم مكاناً . وماذا كان يجديه من عبلة انة هناك
إذا هو أبحاها من العدو المنتصر ؟ أليس أبوها هو الذي أومأ وليته
لعامة ابن زياد وقد جاء يخطبها ؟ فهل كان ليقاتل حتى يخلصها
من فرسان طيٍّ حتى لا تكون أسيرة عندهم ولا يملكها فتى منهم ،

ثم تكون بعد ذلك عند عمارة بن زياد ويعود هو إلى إبل
شداد ليرعاها ؟

بقي عنتره يعانى هذه المعركة الشائرة فى نفسه حينئذ غير منتبه
إلى ما حوله حتى سمع صوتاً من أسفل الرهوة يناديه فى فزع ،
فنظر تحته فإذا أبوه شداد يصيح به قائلاً :

— أما تسمع يا عنتره ندائى ؟ أما ترى قومك يصرعون
تحت عينيك .

فنظر عنتره إليه ورفع قامته فى هياج وركر ربحه فى الأرض
فى عنف . وصاح فى صيحة وحشية :

— وما شأن عنتره بالقتال أيها الشيخ ؟ وما قومي الذين
تدعونى إلى بصرتهم ؟ ليس لعنتره قوم . لقد علمت أن ليس
لعنتره قوم . فادهب عني .

فصاح شداد :

— ربح مناة لقد أصابك الخبل أيها العاق .

فصاح به عنتره فى سخرية :

— لا تؤاخذنى يا مولاي فإني نسيت الأدب فى خطابك .
ولكننى عبد وما شأن العميد بالقتال ؟

ثم عاد فضحك فحكته الأولى .

فقال شداد :

— دع هذا الهراء وأسرع إلى .

فقال عنقرة متحدياً :

— إني تركت الركوب والقتال فليس لي قوم أقاتل عنهم .

إني لا أحسن إلا أن أحلب البياق وأن أحفظ سخال الأغنام

وفصائل الإبل من عدوان الذئب .

هذا رمحي أستعمله هراوة في يدي أهش به على غنمك

يا شداد بن قراد ، وهذا سيفي في عمده أضرب به أعجاز الجحول

المتعمدة عند موارد الماء . هذا يأسيدي ما أحسن من بلاء

الحياة ، فلا ينبغي لي أن أشارك السادة في الدفاع .

إما الحر هو الذي يسند الأحرار ، فإذهب إلى هؤلاء الدين

يحق لهم القتال . إذهب إلى أصهارك وأحوالك وإلى عمارة بن

زياد فادعهم إلى نصرتك . إذهب إلى بني قراد فهؤلاء هم

الأحرار . أين مالك أخوك وأين عمرو ابنه ؟ وأين زخمة الجواد

وأين أبناؤه ؟ أين هؤلاء جميعاً فإبرهم في غنى عن العبد

ابن زبيبة .

وعاد إلى الضحك كأنه قد اختبل عقله .

فصاح شداد وهو ينفجر غيظاً :

— انزل ثكلك أمك قبل أن أصعد إليك فانكل بوجهك

الأسود .

فصاح عنتره في جنون :

— اذهب أيها الشيخ عني ، فإنك تسخر من نفسك .

اذهب عني فوحق مناة وكل آلهة عبس الجوفاء إنني لا أعرف

القتال . ولن تجدني إلا كما أردت ، عبداً يشمت كلما رأى ذل

كبريائك . اذهب فقل لقومك هذا مصرع البغي ، وما اتخذ

قوم بعضهم عبداً إلا كان بعضهم فيهم عدوا . أنا عبد عبس

ولست من عبس . سأنظر إليكم وأرى طحنكم وأمتع نفسي يقهركم

وذلكم ، وماذا يضر العبد عنتره إذا نكل العدو بكم ؟ أنا اليوم عبد

عبس وسأكون غداً عبد طيء ، وإذا رعيت إبلك اليوم في عبس

فسأرعى إبل سيدي في طيء غدا . هذا ما تعلمته فيكم من

الكرامة فاذهب عني لا أنا لك يا شداد بن قراد .

وكان الشيخ يسمع قوله وهو لا يصدق أذنيه فقال والغيظ

يخنقه :

— لقد هممت أيها الشقي أن آتى إليك فأضع سيفي في صدرك.
أهذا عنتره الذى يخاطبني ؟

فصاح عنتره : تعال أيها الشيخ فضع سيفك حيث
أحببت . أتعجب من قولى وتسأل أهذا عنتره الذى يخاطبك ؟
بل أنا الذى أسأل أهذا هو شيخى وسيدى الذى يخاطبني . ألا
تذكر يوم تركتني أذهب مع العبيد أمثالى لأرعى إبلك ثم
نسيتني ؟ أوجدت القتال أحر مما يقوى عليه فتيانكم ؟ أما تدعى
أيها الشيخ أحلب وأسرق وأتذال فى الخطاب ؟ أما كان ينبغي
لك ألا تجيء ها هنا حتى أجعل حقدى عليك من وراء ظهرك
كما ينبغي لعبد مثلى ؟

فتوغل شداد فى الربوة صاعداً والغيط يدفعه حتى اقترب
من عنتره وأمسك بكتفه فهزه فى عنف وقال له :

— أنك تضع الفرصة فى حديث ناطل . هلم فانزل معى
لا أم لك !

فارتدى عنتره عند قدميه وقبلهما ثم وقف أمامه متحدياً وقال :
— هاإنذا قبلت قدميك كما فعلت مرة من قبل ... على أن
أسمح لعليكم وأن أحمل لك إداوتك وكفانة سهامك ، وأن آتى

لصيفك بالطعام والشراب، واقف بين يديك صاغراً ، مرهماً أذنى
 لهمسات أمرك فاتحاً عيني لكل إشارة منك . اذهب يا سيدى
 فأنا عبدك الذى ينتظر خدمتك . فإذا وضعت الحرب أوزارها
 وجدتني عند قدميك جائئاً . وأما القتال فقد قلت لك أنه ليس
 من شأنى . اذهب أنت لا أم لك سيدى . فاست أحسن إلا
 الحلب والصر ولا شأن لى بالصرب والكر .

وكان شداد يسمع هذه الكلمات وهو يتحرك فى قلق وينظر
 إلى عنقرة فيفتح فيه ويهم بأن يصيح به صاخباً ، فلا يدع له
 عنقرة فرصة للقول بل يتدفق فى قوله الحائق تدفقاً متصلاً . وكان
 بين حين وحين يلتفت إلى ميدان المعركة فيرى العرسان لا يزالون
 يتجاولون ويتبارزون وهم يتنقلون بين البيوت التى دكت
 دكاً . ورأى النساء والأطفال يسوقهم العدو مع أسلاب الإبل
 والأغنام إلى ناحية فى انتظار القضاء على بقية المقاومة ، فلما فرغ
 عنقرة من قوله صاح شداد فى ضراعة :

— أهكذا تتخلى عن قومك ؟ أما ترى العدو وقد حطمهم
 وكسر بيوتهم وأخذ نساءهم وأطفالهم سبايا ؟ أنظر يا عنقرة إلى
 فم الشعب هناك حيث منازل أميك وأعمامك ؟ ألا ترى العدو

يسوق نساءك وبنات أعمامك ؟ إنك تشمت والحر يشتري نفسه في مثل هذا اليوم . فإذا أردت أن تكون ابن شداد حقاً فلست أبداً الدهر بأبيك إذا أنت قعدت عن قومك . إن الحرية تشتري ، وليست توهب يا عنتره ، والعبد هو الذي يتمنى وهو قاعد ، فهو عبد إذا وهبت له الحرية عطاء . إنها تكون كقطعة من العظام تلقى إلى كلب جائع ينتظرها صاغراً . قم يا عنتره وأزل عنا معرة هذا اليوم .

فانتمص عنتره وصاح بأبيه :

— وماذا يكون اسمي منذ اليوم يا سيدى ؟

فصاح شداد فى حنق :

— حسبك أيها الأحمق لا أم لك . ماذا يغنى الاسم عن الرجل إذا كان فى حقيقته عبداً . هلم يا عنتره فاسرع من ورأى .

فصاح عنتره :

— قل لى يا ابن شداد ولو مرة . قل ذلك يا أبى حتى أسمعك تدعونى ابنك .

فصاح شداد وهو يثب إلى أسفل الربوة :

— أسرع ورأى يا عنتره بن شداد . إنما العبد من يقول
لك منذ اليوم غير ابن شداد .
فاندفع عنتره فى أثره حتى بلغ مكان الأبحر فوثب عليه
وسبق أباه قائلاً :
— الحق نى يا أبى وقاتل إلى جانبى . فسأبأدى اليوم فى
قتالى : أننى بن شداد .

٧

قضت عبس أياماً بعد انتصارها على طيء فى عيد متصل ،
إذ كانت نجاتها إحدى العجائب التى جرت المقادير بتدبيرها .
فقد بغتها طيء بفرسانها على حين كان العبسيون مع ملكهم
زهير بن جديمة بعيدى عن الحى يطلبون ديار طيء . ولم يبق
فى الحلة إلا العدة القليلة التى عجزت فى دفاعها حتى اجتأح المغيرون
كل ما وقف فى سبيلهم ، وأحس القوم أن أمرهم قد انتهى إلى
الدمار . ثم أقبل عنتره على غير انتظار فأحال الهزيمة الطاحنة إلى
نصر باهر عجيب ، فهرب فرسان طيء لا يلوون على شىء وتركوا
ما أخذوا وما كان معهم سوى الخيل التى بجوا عليها سراعاً .

وعاد زهير بن جذيمة عند ما سمع أنباء الغزوة وما أصاب قومه فيها، ولكنه وجد الحلة في عيد صاحب، ورأى عنقرة فيه واسطة العقد في الأسمار والولائم. فلم يدع وسيلة يعبر بها عن شكره وتشكر قومه إلا توسل بها. وكانت الكؤوس إذا دارت في مجلسه كان عنقرة أول الشاربين، وإذا أشدت الأشعار في حلقات الندى كان شعر عنقرة على كل لسان، وإذا أقل العتبات في حلقات الرقص كان هتافهن باسم عنقرة، وما كان أحب إليه أن يسمع اسمه الجديد من أفواههن وهن ينادين عنقرة بن شداد.

وسار عنقرة أيلة من تلك الليالي مع عبلة وهو مخمور بخمرين: من الكؤوس العدة التي دارت عليه في مجلس الملك زهير ومن حديث ابنة عمه التي كانت تهمس به إليه في تهاتف من ضحكها وأنغام من صوتها الرخيم. وكان أحياناً يصف لها بعض ما كان بينه وبين فرسان طيء من مواقف في يوم المعركة، وأحياناً يعيد عليها ذكر بعض مخاطراته في سير الصحراء في الليالي المظلمة، والغول تلوح له، والجن تتراقص أمام عينيه، وأحياناً ينشدها من شعره ويحدثها بنجوى قلبه. ثم خطرت له ذكرى ما كان القوم يتحدثون به عن خطمة عمارة بن زياد لها فقال فجأة:

— أحمقاً ما يقولون يا عبلة ؟

فقلت له باسمته : وما يقولون يا ابن عم ؟
فقال وقد أطر به نداؤهما : إياك تسأليننى كأني لا تعرفين
ما أقصد يا عبلة . لقد عهدت لك تدركين ما وراء اللفظ قبل أن
أنطق به .

فضحكت عبلة وقالت : أحمقاً ذلك يا عنتره ؟
فقال عنتره : ألا تذكرين إذ كنت تسأليننى عن أمر فأقول
(لا) فتضحكين منى ، فإذا سألتك عن ضحكك قلت اننى
ما قصدت ان أقول لا . انك تحسين بالالهام ما لم يقع بعد شئ
سمعت . فما الذى جعلك تسألين عما يقولون ؟

فقلت عبلة ضاحكة : لقد كنت أنت الذى لا تدرك إلا
ما وراء اللفظ يا عنتره ، فأنت ترى دائماً من ثنايا حديثي ما لم
أقل لك . وانك لتزعم انك تعرف من معانى قولى أكثر
مما أعرف . ألا تذكر أنت إذ سألتنى بالأمس عن عمارة فلها
أجبتك لم يعجبك جوابي وأبيت إلا أن تزعم اننى أراوغك .
إلا أملك أنت الذى تراوغنى اليوم .

فقال عنتره : لقد فهمت قصدى بالهامك فقد ذكرت عمارة .

فقلت عبلة ضاحكة : أف لك ولعارة يا عنتره ! إن الناس يتحدثون في شأنه وليت شعري أى أحاديث الناس تقصد . فليس لهم من هم في ليل أو نهار إلا أن يتحدثوا . إنهم يتحدثون إذا أكلوا ، ويتحدثون إذا شربوا ، وهم أكثر حديثاً مثلك الآن إذا حميت سورة الخمر في رؤوسهم . هم يتحدثون إذا صحووا وإذا ناموا فأى هذه الأحاديث تقصد يا عنتره ؟

فقال عنتره : لست أبالي ما يقولون في أياهم أو سهارهم إلا إذا كان عنك أنت .

فقلت عبلة : وماذا يهمك من هذه الأحاديث ، وقد طامسا سمعتك تقول إنك لا تبالي ثرثرتهم ؟

فقال عنتره في نعمة عتاب : أنت يا عبلة تعبتين بي كعادتك ، وأنا بين يديك أضعف من فرخ اليمام وأخف من ريشة في الهواء . ذريني يا عبلة أعرف ما في قلبك .

فقلت في دلال : وأين ادعائك أن شيطانك يلهمك ؟

فقال عنتره : إن هذا الشيطان لم يستطع يوماً أن يسبر عور قلبي . إنه لا يسبر إلا غوري ولا يكشف إلا قلبي . أما أنت ها هنا أجلس معك وأسير إلى جانبك ، وأخرج في السماء إلى حيث

أحيا في عوالم سحرية من السعادة تلهيني عن كل هذه الأرض ،
ثم أنصرف وقلبي في حيرة بين الأمل الذي يلوح لي والقلق الذي
يساورني . فأنظر حيناً إلى الأرض فأراها جنات فيحاء تحيط بها
الأنهار وتتفجر فيها العيون ويبتسم فيها الزهر ويغنى الطير ، ثم
لا ألبث أن أحس الشجون تثور بي فلا أعرف أنا أطا الأرض
بقدمي أم أنا فوق لجة تضطرب لي . ومع ذلك فإن شيطاني في
شغل عنك لي .

فقلت عبلة في مرح :

— هذا هو شعرك دائماً يا عنتره . تحدثت وأطل في الحديث
فإنه ينزل على سمعي كما يقع الندى على أوراق الشجر .
فقال عنتره في شيء من الألم :

— إنه حديثي . وإنه شعري . نعم فأنا أحدثك وأصف لك
حروبي وأطرب كلما سمعتك تستزيدين من وصفي . ولكنه دائماً
قولي وشعري ووصفي . وأما أنت فلا تزاين دوني مثل النجم
أبعد ما يكون إذا بدا قريباً . وإنه ليحزني ألا أسمع منك إلا
ذلك الإعجاب بما أقول وما أصف .

فقلت عبلة في شيء من الضيق : وماذا يرضيك أن أقول؟

فقال عنتره في صوت متهدج :

— لقد خدمتك أخلص ما تكون خدمة العبد ، ولم
أستشعر معك كبراً . وكم جثوت تحت قدميك وأنا أقدم لك
قعب اللبن لتشربى منه ، وكنت أقول لك من أعماق قلبي
(هنيئاً) . أنت أبدأ علاقي في الحياة وكنت أطمع أن أكون
عندك شيئاً . كنت أطمع أن أسمع قلبك ينبض مرة من المرات
مستجيباً لخفقان قلبي .

فضحكت عبلة ضحكة بعثت رعدة إلى قلب عنتره ،
ثم قالت :

— ألا تمسك يا عنتره عن وصف نفسك هذا الوصف
الذي لا أحب أن أسمعه منك ؟ إلك ان عمى عنتره وأنت تعلم
أننى ما نظرت إليك يوماً إلا نظرتى إلى ان عم لى .

فقال عنتره في شىء من الخنق :

— إنها كلمات جوفاء لا تحمل إلى معنى .

فاستمرت عبلة فى ضحكها وقالت :

— أأست عجباً يا عنتره ؟ ليتنى أعرف السبيل إلى كلمة

ترضيك فأسرع إليها .

فقال عنقرة فى حرارة :

— أنت لا تعرفين الكلمة لأن قلبك لا ينطوى عليها .
وما طلبى ولجاجتى إذا كان ما أطلب مستعصياً ؟ قولى لى قولاً
صريحاً يا عملة ولا تتجملى . قولى إنك ترحمىنى أو أنك تعطفين
على أو أنك تشعرين السرور من قصصى وحديثى وشعرى .
قولى ذلك ولا يأس عليك فإنى أعرف كيف يمدوك وجهى .
لقد طالما وقفت أمام العدران أنظر إلى صورتى فلم أرفىها غير
لوى الأسود وعينى المتقدتين يطير منهما شعاع مخيف . فلا بأس
عليك إذا أنت لم يطر بك منى سوى حديثى وشعرى .

فقات عبلة فى بعض صجر :

— إنك تذهابى بسيل حديثك الخاق ، حتى لقد ارتج
على القول فلا أجد لك جواباً .

فقال عنقرة فى غضب :

— ما أحقتنى إذ أحاول أن أنتزع القول منك قسراً .

فقات عبلة وقد ذهب عنها مرحها :

— يخيل لى أن قولك هذا يحمل من الجدف فوق ما كنت
أحسب . ماذا فعلت يا عنقرة حتى استحق منك هذا العتاب .

لقد بعدت في القول عما بدأت فيه . ألا تقول لي ماذا تعني ؟

فقال عنزة في حرارة :

--- إنني أسالك عن نفسك أنت . قولي لي الحق
ولا تترفقي بشقائي . قولي لي انك فوق نظراتي وفوق عبادتي .
فقلت عبلة في تبرم :

— قول عجيب وحق مناة . ألاح لك مني ما ينم عن
شيء تكرهه ؟

فقال عنزة في صوت متهدج :

— أنت تتجاهلين ما تعرفين . وتتجاهلين ما يتحدث به
الناس جميعاً في نواديهم وطلبي بيوتهم . ألم يخطبك عمارة بن
زياد وأنت تحجبين ذلك النبا عني ؟ ألم يولم له أبوك وليمة كأنه
ملك ؟ أما كنت تخدمينه وتسعين في البيت تستحيتين الإماء
لسكى يبالغوا في إكرامه ؟ هذا أنت منذ الليلة ترواغي ولا تريد
أن تتحدثي بكل هذا الذي تعرفين .

فقلت عبلة واجهة :

— عجباً منك يا عنزة أن هذا هو ما تعني ؟

فقال عنزة مندفعاً في غضبه :

— إنك تتخذينى لعبة ولا تريدن أن تكشفى لى عن حقيقة نفسك . الويل لعارة والويل ثم الويل لك إذا اتجهت منك لفتة إلى عمارة .

فقالت عبلة غاضبة :

— إنك ترمينى بسهام فى هذه الدفعات الحارقة . ثم أنت هذا تجهينى وتطعن قلبى وتنادينى بالويل .
ودمعت عيناها عند ذلك واندفعت تسير عنه غاضبة .
فقال عنترة متروفاً وهو يسرع وراءها :

— عفواً يا عبلة فإن شقائى هو الذى حرك لسانى .
أقول لك الويل وإن دمعة من عينيك أفنديها إذا استطعت
بحياتى ؟ ويلي أنا وتعسا لى ! وحاشاك أن يحل الويل ساحتك
يا عبلة !

ولكن عبلة سارت فى طريقها صامتة ومسحت دمعها
بطرف كمها .

واستمر عنترة قائلاً :

— ألا تقولين لى إنك عهوت ؟ أحقاً أنت رضيت بان
ياد زوجاً ؟

فقالت عبلة غاضبة :

— وما شأنى فى زياد وابن زياد ؟

فقل عنتره مترفقاً : قولى كلمة يستقر لها قاي . إيهم يتحدثون
ويمالأون صدرى سقاء . فهل رضيت به حقاً ؟

فقالت عبلة فى حنق :

— وما أنا وذلك ولست إلا فتاة ، جاء ضيف إلى أبى

فسمعت مع أهل بيتى فى خدمته ؟

فقال عنتره فى لهفة :

— ورضائك ؟

فقالت فى شبه سخرية :

— رضائى ؟

فقال عنتره ضارعاً :

— نعم رضاؤك يا عبلة . أترضين به زوجاً ؟

فقالت عبلة فى تحد :

— وما رضائى أنا يا عنتره ؟ فهل أنا إلا فتاة فى بيت أبى ؟

فقال عنتره مندفعاً :

— ستذهبين إذاً إلى بيت ابن زياد إذا رصى أبوك .

متكونين إذاً له زوجة إذا قبل مالك بن قراد . ستذهبين إذن كما تذهب الأمة مع سيدها .

فقالت عبلة غاضبة في كبرياء :

— كف لسانك يا عمتره است أمة ، وما ينغى لى أن

كون أمة . إنما الأمة غيري .

فصاح عمتره فى حنق :

— نعم الأمة غيرك يا عبلة . إمها زبيبة أمى .

فقالت عبلة فى جماء : قل ما بدالك فان أحبيك .

فقال عمتره فى صوت أجش :

— الآن قد برح الخفاء يا عبلة واحلى الظلام الذى كن

بمحجب الحقيقة عني . الآن عرفت ما كمت أبني أن أعرف .

ما كان أحقنى إذ كمت أسعى إلى أن أعرف هذا الذى عندك

فأرتد شقيماً بعد أن كنت أفرح فى جهاتى سعيداً . إذن فهو

زوجك ابن زياد الذى يرضاه أبوك وترضيه يا عبلة .

وأما أنا فاست إلا ابن زبيبة الذى يحدك ويرحى لك

وقت فراذك .

ثم ثار رقال فى وحشية :

— إني ابن زبيبة ، وإن يذهب هذا العار عني . فلا ذهاب
إذن مع سيرل من الدماء وعواصف من اللهيب ، فإن دوز ابن
زياد لمهلك تنقطع دونها همته . ألا فاعلمي يا عبلة أن ابن زياد
أن يقرب منك ، فأنت لى أنا . أنا الذى أحبتك وعبدتك
ولا أستطيع أن أحيا إلا لك . أنا ابن زبيبة الذى اشتريت
حريتي بسيفي من أجلك .

نعم من أجلك أنت يا عبلة . ألا فاذكرى يا عبلة قولى . سوف
أبعث إليك ليلة زفافك برأس هذا النقي الوسيم لتكون هدية
عرسك ، وإن تزال العرب تتحدث بذكرها أبد الدهر .

تذكرى هذه الهدية التى سأهديها . فإذا ما حانت ليلة
زفافك إلى عمارة فاذكرى وادكرى هديتى .

وكأنما قد قرأ من بيت عبلة ، فوقف عنقرة لعترض سبيلها
ليتيم لها فيض حنته . ولكنها لم تنظر إليه . وبغت مسرعة
نحو بيتها . ووقفت عنقرة حيناً ينظر فى أعقابها وكأن نارا تأتهم
قلبه ، ثم دار فجأة على عقبيه واتجه نحو الصحراء ، وذهب يخط
الأرض برمحه وهو لا يدرى إلى أين يتجه .

٨

خلا شعب الجواء من منازل مالك من قراد منذ نزع بأهله
إلى أرض شيبان ، وقد ضاقت به الحياة في قومه منذ جهر عنقرة
بما ينطوى عليه قلبه من حب عبلة والتعلق بها ، وما اعتزمه
من عداوة كل من يجروا على طاب زواجها . وكان مالك
نصير في قرارة نفسه إحساساً بالمرارة من أن يعطى ابنته لعنقرة
وإن كان فارس قومه وحاميهم ، وما كان مثله ليصهر إلى
رجل ولدته زبيبة الأمة ، فيمزج دماؤه بدماء عبد وإن كان ذلك
عنقرة الفارس وابن أخيه . وكان عمرو بن مالك أشد من أبيه
نفقة وكبراً ، فهو يؤثر صديقه عمارة بن زياد السيد الوهاب المحدث
من سلسلة الأجداد من الآباء والحرائر من الأمهات والجدات .
لم تكن عبلة بأقل ضيقاً وألماً من أسها ، فقد وجدت نفسها قطب
لأحاديث في نوادي قومها وهدف الحسد من صاحباتها ، لا يخلو
يوم من نمرة في الحى من أجلها ، حتى كاد القتال يدور بين طوائف
بزازة في قبيلتها ، منهم من يهتف بعنقرة ومنهم من يتحير
بعمارة ، وهم في كل يوم وفي كل ليلة يتصادمون ويتنازعون

حول اسمها . فانطوت على نفسها كئيبية لا ترضى بأن تزور
ولا بأن تخرج للقاء من يأتى إليها فى رياره . وكان صاحباتها
كلما جئن إليها لا يجدنها على عادتها مرحة مستبشرة تملأ المحاسن
سهجة وتبعث فيها روحاً من صوتها العذب الضاحك .

وكان ألمها يزداد كلما تذكرت ما كان بينهما وبين عنترة فى
تلك الليلة، إذ سر إلى جوارها وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة
كأبها الأمة الأسيرة ، ولم يتردد فى غضبه أن ناداها بالويل
وأغلظ فى حديثها ولم يرض منها بما كانت تهدهد به نفسه
من مواساتها واعتذارها . بل إنه هدهدها بهديثه الدموية إذ
قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها .

وكانت فى اعتكافها ساكمة تقضى أكثر الوقت فى فرائتها،
وتبكي أحيانا ولا تدري ما الذى أبكاه، حتى حال لومها وذبلت
نضرتها وامتلاً صدرها كآبة .

وضاق المقام بأبيها ملك وحار فى أمره كيف يطيق الحياة
وهو يسمع الناس ينشدون شعر عنترة فى ابنته ويستعيدونه
فى مجالسهم . وكانت أنفته تنور ولسكه كان لا يستطيع أن
يقاتل الناس كل يوم وهم لا يعملون إلا ما فعل العرب فى إنشاد

شعار شعرائها . ولكن ولده عمرو كان لا يمسك نفسه ، فكان
 " يمر بقوم يتغنون بذلك الشعر إلا بادرهم باللفظ الخائق وهم
 نقاتلهم . فأشفق مالك من ذلك كله ولم يحدله نخرحا الا أن
 فادر أرضه ويرحل إلى أصهاره في بني شيبان .

ولم يطق عنثرة كذلك البقاء في قومه ، فهام على وجهه
 الصحراء ، فكان لا يلم بالخي إلا بين حين وحين . وكانت زيارته
 " تزيد على أن تكون المائة بشعب الجواء فيتضي منه أربه من
 نسم نسيه وانشاد بعض الشعر عنده ، ثم يعود إلى صحرائه ليضرب
 ، شعابها ، حتى تغير وأصبح لا يكاد يرى مجامع الناس .

وعاد يوماً إلى حلال دار عبلة وهو أتمعت أغبر ، قد مرزت
 جفنتاه وطار عيناها واصفر لونه الأسمر ، ولم يعق منه سري
 بينين : نأتلقان ، كأن شعاعهما بريق السيف في ضوء القمر .

وجاء إلى طلال الدار فجاء بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده ،
 بتنايا الرؤى التي كانت تحيط بخيامه ، ثم وقف " مهوتا يمسك
 على رجليه الركبتين الرمل يديه مسنداً بذقنه عليه ، كما تما هو
 مثال في نرائب " بعد مندر .

وقضى ساعة رهو يتأمل ما كتبت عينيه ، فهناك كان خفاء

عبلة ، وهناك كانت تقبل عليه باسمه تتناول منه قعب اللبن في الصباح ، وهماك كانت تضحك مكركرة إذا سمعته يهمس لها بكلمة حب ، وهناك كانت تقف ناظرة اليه في عطف وهو يحف لها آخر مغاريه . حتى إذا ما انتهى أرهف أذنيه لسمع منها كلمة التي كان يكتفي بها الشفاء غلته .

ثم تذكر كيف أتى اليها عند ما سمع بمرضها فلم يأذن له أن يرويتها ، فلما أرسل اليها أمه لم تجد منها سوى البكاء ، ولم تسمع منها إلا كلمات يبدو فيها الحلق والحزن . ونظر إلى بيوت الحى المشيرة في أنحاء السهل ، وأحس من نفسه دفعة إلى أن يمضى اليها فيقطع من فيها رحمه ويضرب فيهم بسيفه حتى لا يبقى أحداً بعدها في تلك الديار التي كانت هى صاحبته وهى المازلة فيها . فما هذه الميوت بعد أن خلت منها ؟ وما تلك القبيحة كلها بعد أن رحلت عبلة عنها ؟

ثم جعل يتغنى ببعض شعره وهو يتكىء بذقنه على يديه مستنداً على رحمه لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى أقبل أحوه تسيبوت من ورائه فسمعه وهو يقول :

خليلى أمسى حب عبلة فأتلى وبأسى شديد والحسام مهند

حرام على النوم يا ابنة مالك ومن فرشه جمر الغضا كيف يرقد
 سأندب حتى يعلم الطير أننى حزين ويرثى لى الحمام المنفرد
 وألثم أرضاً كنت فيها مقيمة لعل لهيبى من ثرى الأرض يبرد
 رحلت وقلبي يا ابنة العم تائه على أثر الأظعان للركب ينشد
 لئن يشمت الأعداء يا بنت مالك فان ودادى مثلما كان يعهد
 فناده شيبوب من ورائه قائلاً :

— ها هي ذى ركائبك يا عنتره حاضرة .

ونظر إليه عنتره فى فتور ، ثم نزع الرمح من الرمل وسار يجرر
 رجلبيه وهو صامت ، حتى ركب فرسه ، وسار أخوه يسوق الإبل
 الحملة من ورائه . وبقي عنتره على إنشاده كأنه يهمس به إلى
 نفسه حتى بعد عن الحى وأوغل فى الصحراء .
 وأقبل الليل فتقدم إليه أخوه شيبوب وسأله النزول فقال
 عنتره واجماً :

— لوددت أن أسير ليلي وسهاري ، فاني لا أطيق أن استقر
 يا شيبوب .

فقال شيبوب عاطفاً :

— ولكنى لست مثلك يا عنتره ، ولا بدلى من أن أذوق من

الطعام والخمر بعد كل يوم . ثم مضى ليوقد النار ويعد الطعام . وجلس عنجرة وحده يناجى شحونه حتى عاد إليه شيبوب يحمل الطعام ، ولم يستطع أن يقاومه فذاق معه شيئاً ، ثم أخذ منه كأساً بعد كأس وهو يغغم بين حين وحين في نفسه ببعض الشعر ، ثم اتجه بعد حين إلى شيبوب وقد حركته الخمر فقال :

— هذا الفضاء المسيح يشملنا وحدنا ، فكل ما فيه من وديان وتلال وأغوار لنا وحدنا . ولو كان في هذه الوديان أموال لم يمتنع علينا شيء منها . فأنا ملك هذه الأرض يا شيبوب .
ثم تردد حيناً وقال في حزن :

— ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئاً . وما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة ؟ إننى لا أعبا هذه الإبل ، فسجل من طراق الكندى يملك معها آلافاً ويسوقها صداقاً لعبلة ، وفي بنى شيمان يملك مثلاً قيس بن مسعود لى يهبها مهرأ لعبلة عن ابنه بسطام ، ويملك عمارة مثلها وهو يتقدم بها إلى مالك ليزوجه لعبلة . كل هؤلاء يملكون الإبل فتعسا لها وبعداً لمن ملكها !

وكان شيبوب قد أفرغ كأسه وقال فى مرح :

— لو كنت عنجرة لقصدت إلى شيدان فنزعت عملة من بين

ظهرا نهم وخرجت بها إلى البر كما يخرج الأسد بفريسته
فقال عترة : ويلك يا شيموب ! بل أذهب إليها لكي
أذرف دمعى وأدقق ما فى قلبى حتى ترضى عنى .

ولاحت عند ذلك سحابة من الطير تضىء بشعاع الفجر تيمم
نحو الغرب ، فقال عترة وهو ينظر إليها :

— ليت لى جناح هذا الطير فاذهب حيث شئت وأنمى مع
سرعة خاطرى إلى حيث تتوق نهى .

بل ليت لى مثل حماحها فأحاق فوق هذه الأرض وأقذف
عليها من السماء هما حتى لا يبقى عليها غير عملة يا شيموب .

إنهم لا يزالون ينظرون إلى كما ينظرون إليك . إننى إن
زبدية وإن نسبى تداد إليه .

فقال شيموب ضاحكاً :

— لست أمانى كيف ينظرون إلى .

فقال عترة : لقد كدت أحسدك على نفسك يا شيموب ،
إنى ما زلت حيث كنت بعيداً عن سعادتى ، ألحقها أمانى وهى
تهرب ونى كما يهرب الجبان الذى يركب مهرأ سرعاً .

لم يكن الرق هو الذى يحول بينى وبينها ، بل هو انمى يسترون

به ما فى نفوسهم من الكبرياء الضعيفة . ليس الرق سوى وهم
يرضى به الصغفاء ضعفهم ، فهم لا يجدون ما يميزون به أنفسهم
إلا أن يهبطوا بمثلى إلى ما دونهم ، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم
من عترة .

فتال شيبوب وهو يملأ كأسه :

— أنت تحس النذل لأنك تحتاج إليهم . إن هذا الغل الذى
تضعه حول عنقك هو الذى يذلك وليس ما تحسبه من كبريائهم .
إن هذا الذى تسميه الحب أسميه أنا انرق والنذل . فعجبا منك
إذ تقرى على دمه الدماء تسمكها رلا تقوى على قيدك الذى
تقيده به فتاة .

فتال عترة وعري مجرع كأسه :

— أنت ، نومك يا تديوب لأذك لا تحمل نفسى . وأركن
لك قلب لا تحرك إلا كما يتحرك تلبى . أنت تخدع نفسك حتى
ترضى بما أنت فيه .

فتال تديوب ، إنما العبد من يستمد من الناس حريته .
إننى أعيش 'نفسى' ، رافضا مضرت إلى هذا الناس لا ، كذا أرى
منهم أحدا سواك أنت وأمى وإخوتى . أما سائر الأحياء فإنى

أمتهم وأخدعهم وأخونهم ، ولو استطعت أن أفتك بهم لما ترددت لحظة . إننى أسرق أحياناً وما بى من حاجة إلى الذى أسرقه ، وأكذب وأيس ما يدعو إلى الكذب . وما ذلك إلا لأنى أمتع نفسى بأن أوقع بهم الغيظ وأسخر منهم . ولست أجد عفة عن نساءهم ولا غضباً لأعراضهم ، ولولاك لكنت أظعن فى الحرب فى ظهورهم . أما قلت لك إنك إن تجد منهم غير ما أجد أنا ؟ فما الذى يجشمك هذه المناعب فى طنب ما لا يجديك معهم نفعاً .

فقال عنتره : هذا قضائى وليكن لك ما ترى . سأذهب إليها لعلنى أنظر إلى وجهها ، وأعلى أجد الدسع قد جف من مقلتيها . ثم لن أزال بهذا الرجل حتى أتملق كبرياءه ، ولن أزال ناسه الأحق حتى أهدهد غروره . سوف أنذل وسوف أبكى وسوف أفتجم اللجج واليران . سوف أخدم شيبان وأرعى لها إلبها كما كنت أرعى إبل شداد لى يرضوا بمقامى قريباً منها .

فقام شيموب وأخذ كأسه فى يده ورفعها قائلاً :

— أحق رب الكعبة ! أنهم لا يريدون وحق مناة إلا أن يرموا بك فى المهالك ولا يروا لك وجهاً .

وأما أنا فاني ان أعدل هذه الكاس شيئاً . وهي عندي خير
 من عبلة وكل قومها . أنا أعرف كيف أحيا وكيف أنعم بضامى
 وشرائى ، وكيف أصل النساء ، وكيف أقتصص الوحش . فلا أضلك
 تحرص إلا على انوهم الذى يصوره لك الخيال . اذهب كما
 شئت وألمس ما شئت فانا أحب أن أكون معك وان أتخلى
 عن صحبتك . ألك تحبها لأنك تطلب علالة حياتك ، وأنت
 تجدد لذتك فيما تأمل . وأما أنا فاني أجد لذتى فيما أذوق وأقارف .
 أنت تسعى وتتألم وأنا أحيا وأنعم .

ثم شرب كأسه وقال وهو يرتص :

هات اسقى من خمرة بالكاس أو بالجرة

شقراء مثل الدرة عاطرة كالزهرة

نلت كريم حرة أودع فيها سره

والليل يجلو بدره والعجم يرعى فخره

اكل ايل بكره اكل حى حفرة

ما العيش إلا مرة

وكان عنترة يمظر إليه باسمًا حتى إذا ما انتهى من إنشاده قال

له : لقد كدت يا شيموب تفتننى .

قضى عنقرة ليالى فى سجنه يتوجع ، ولم تسكن الجراح التى أصابته هى التى توجعه ، لأن حرح قلبه كان أشد ألماً . فقد أتى إلى العراق يطلب المهر الذى طلبه أبو عبلة من النوق العصفير ، التى كانت الملك النعمان يملكها ، ولم تسكن فى قبائل العرب قبيلة تعرفها .

كانت بيضاء كأنها وعول الجبال ، خفيفة كأنها الغزلان ، طيبة الألبان كالبقر ، حلوة المنظر كالماها ، طيبة اللحم كأنها الحملان . وأبى مالك إلا أن يكون مهر عبلة من هذه النوق التى يسميها النعمان فى مراعى الخيرة ، ولا يحرو على الاقتراب من حماها إلا مستأنس من الحياة .

وأتى عنقرة يضرب فى الصحارى نحو العراق وحسرة عبلة مائلة أمام عينيه عند كل ننية وعند كل مرقب . وما كان أحب إليه من تلك الخطرة الجريمة التى اعتزم أن ينفذها ، لأنه كان يجد فيها مجالا لمجد جديده . وروبه إلى الحبيبة التى كان لا يرى فى الحياة شيئاً يستحق أن يحرص عليه إلا حبها . ركان فى أثناء سيره فى

تلك الصحارى الجاهمة يردد كلمات عملة التي قائمتها له وهى تودعه أمام بيت أبيها فى بنى شيبان إذ قالت له : « سرف أنتفرك حتى تعود وإن ظالت غيبتك » . وكان يستعيد حديثها فى ليلة الوداع وهى راضية باسمه تقول له « هكذا أراد أبى ، ولو كان لى الاختيار لما اخترت إلا ابن عمى » . كانت كلماتها كلها مسطردة على قلبه يدخرها كآثمن الكموز ، كما يدخر المقطوع فى الصحراء الماء فى الأحواض البراقة للمساء فى بطون الجبال ليطلق به حرور الحجير . وكانت نظراتها العاصفة إليه وهو يثب على فرسه (الأبجر) لا تزال تطاع عاينه كأنقمر فى الليلة الضلواء إذا أطل فى مهمه التفرد على السطح الذى ضل السبيل فيه . كانت بسماحتها ونظراتها تتردد فى قامه كأنها الأعانى التى تحدد سيرة فى ذلك الطريق الوعر الطويل ، يقوى بها نفسه إذا أجهدته آخر ، ريندى بهاروسه إذا أمضه الجوع ، ويجمعها سمره إذا شرب الخمر ، وحديثه إذا جاس إليه أخوه وصاحبه شيدوب .

ولكنه ذهب إلى العراق يطالب مطالماً عسيراً ، لأنه أقدم على مراعى النعمان وأراد أن يستق منها ما شاء من الإبل العصافير . فما هو إلا أن أحس الرعيان به حتى أرسلوا المذر إلى الملك

العظيم في الحيرة وفيما هو يضرب في اعجاز الإبل مسرعا نحو الصحراء أدركه الملك في كتيبة من الفرسان فأحاطوا به وبالنوق التي استاقها، وكانت معركة بين فارس نائز مستيئس وجيش لجب من الشجعان. فلم يستطع إلا أن يقاتل مابق في يده سيف أو رمح، ثم أثنخته الجراح وخرصرعاً، وحمل إلى الحيرة بين الموت والحياة. وراه شيبوب يقاتل في وسط الحلقة الخيفة فلم يستطع أن يخلص إليه، فقد كان الموت يحول بينهما. ورأى السيوف تلعب والرماح تتقصف في معركة هائلة، فلم يجد خيراً له من أن يندس بين الصخور يرقب القتال، حتى إذا ما رأى عنتره ينجر عن جواده زحف متوارياً بين الحجارة، حتى جمل التلال وراءه ثم قام وأطلق ساقيه للريح.

وتضى عنتره في السجن ليالى ما كان أطولها، وكان أشد ما أصابه في كل ما وقع به أنه خاب في أن يحوز مهر عبلة، وأنه قد حيل بينه وبينها في ذلك السجن القاتم الذي كان النور يدخل إليه متردداً من فرجات ضيقة بين قصبان الحديد.

فكان ينظر إلى النجوم اللامعة يناجها، ويرى صورة عبلة فيها، ويستعيد نظراتها وبسماتها في الألهاء ويسمع أصداء صوت

عيلة العذب في بجواها ، ويرسل على شعاعها تحيات يأس من الحياة . ثم طلبه النعمان بعد أن التأمّت جروح لهكى يرى الرجل الذى جاء إليه وحده غازيا ، وحمله النحس على أن يطلب الحلال ويجرؤ على استماحة حماه . وأدخل عنقرة عليه مقيداً فى سلاسله ، وقد جلس حول الإيوان شيوخ من تغلب وشيمان ينظرون إليه ويعجبون .

وكان الملك غاضباً يحاول أن يمسك نفسه حتى يسمع قوله قبل أن يوقع به العقاب ، فانه لم ير مثل هذا الأسود رجلاً .

وتأمله النعمان ساعة وهو صامت ثم قال له :

— من أنت أيها البائس ؟

فقال عنقرة ناظراً إليه هادئاً :

— أنت ترانى أمام عينيك .

فسرت همهمة فى الجلوس وصاح الملك :

— أسألك عن نفسك . أسألك عن قومك إن كان لك قوم .

وما أحسبك إلا عبداً آبقاً .

فقطاعه عنقرة قائلاً :

— الهبد غيرى !

فقال الملك : هو يحاول أن يمسك غضبه :

- أما تعرف ما فعلت ؟

فقال عنتره : جئت الى حمى النعمان لاستاق نوقه العصافير .

فقال النعمان فى دهشة :

— إنك امرؤ بين الحق والجنون .

فقال عنتره ثابتاً : أسمع منى هذرا ؟

فقال النعمان حائقاً :

— بل أرى أعجب من الحق والجنون . إنك رحل واحد

تأتى من أقصى الأرض لكي تسوق إلى . أكنت تحسب أن

لن يرد كيدك أحد ؟ لأقطعن أعضائك ولأقذفن بك إلى حيث

ينبغي لمثلك أن يلقى .

فقال عنتره مبادراً :

-- كمسكف أبها الملك غضبك ، فاست تأمن مثلى أن يرد

عليك قولاً بمنله . لست أخشى وعيدك وأما فى يدك . وإنه ليحقق

لى أن أعجب منك إذ ترانى فى يدك ثم تهددنى . ولو شئت

أن أرد عليك لكاء مجال القول متسعاً . فما كان ينبغي لمثلك

أن تأتى بى إلى مجلسك وتجمع هؤلاء الشيوخ حولك لكي تهددنى

بتطوع أوصالى والمثلة بجسمى . وايش ما يمنعنى من أن أركب
معك أوعر الوعر فى الخطاب .

فاردّ وجه الملك وقال :

— لص جرىء :

فقال عنتره فى دفعة : بل مغير أتى يطلب الغنيمة .

فقال النعمان :

— ألك نأر عندى ؟

فقال عنتره : بل جئت أطلب نوقك العصافير كما يطلب
الأسد صيداً ، أو كما يطلب بعض هؤلاء العرب إبل بعض
فى العزوات . فما أنا أيها الملك وما أنت وما هؤلاء جميعاً سوى
عرب يترددون بين وديان نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة
وكلهم يسلب ويغزو . لست بالسارق أيها الملك إذا لم تكن
أنت سارقاً وإذا لم يكن هؤلاء جميعاً لصوماً .

فسرت غممة عالية حول الإيوان وقال الملك فى غضب

مكتوم :

— أقصر عن ذلك لا أم لك ، وحدثنى إذا لم تكن لصاً .

أبعثك أحد على عينا ؟ أم استأجرك بعض أعدائى لمتحدث

الناس بحراً أنك فيغض من قدرى . قل واصدقنى ولك منى حياتك .
فقال عنقرة ساخراً :

— بل جئت إليك لأستاق إبلك لنفسى . وما كنت
لأحارب لأحد غيرى . وما كان مثلى ليدب إليك جاسوساً .
فصاح النعمان ساخراً .

— متلك ؟ ومن أنت إذا لم تكن أحد هؤلاء الصعاليك
الذين لا يهتمون إلى قيمة ؟ أو اعلك من هؤلاء الذين اعظتهم
أقوامهم ليمروا من معرة جرائهم فلم نجد سبيلاً إلا اقتحام المهالك .
وإن فى وجهك الأسود لدلالة على صحة رأى . من أنت أيها
الأسود الكريه ؟
فقال عنقرة هادئاً :

— أما وقد ذكرت سوادى فاعلم أيها الملك ما يملوك فرعا .
ثم تضائل فى نمسك واتسكر مناة على أنك بحيرة من قة لى .
أنا عنقرة بن شداد .

فسرت ضجة فى الجميع وقال النعمان فى دفعة :
— عنقرة ؟

فقال عنقرة : نعم أنا عنقرة الذى تعرف . أنت تعرف من

أما وتسمع الكثير من خرى . أنا عنقرة فأملأ قلبك غيظاً إن شئت .

فقال الميمان إلى ظهر كرسيه وقال باسمًا في سخرية :
 — لو صدقت لسرني أن أراك في القيود أمامي . إنك كمت
 تفرع الصمحاء وتقطع السبيل ، وكانت القبائل تضج من اعتدائك .
 نعم لو صدقت اسرني أن أراك مقيداً أمامي ، فقد دفعت الغرور
 إلى أن هممت باستباحة حمى ملك العرب . وحق منة لو كنت
 عنقرة لقد سعيت إلى هنا لتلقى عقوبتك .
 فقال عنقرة ضاحكا :

— وهل على أمرىء من عار إذا أخذ أسيراً ؟ هل على من
 عار إذا أحاط بى جيشك وقادى إليك بعد أن جدت من
 أبطالك من جدت وشردت من شردت وطاعنت حتى لم يبق
 فى يدى سنان ولا تحتى فرس ؟
 فقال النعمان فى حنق :

— إنك تزعم أنك عنقرة ومن لى أن أصدقك . إنك لا تقول
 هذا إلا كدما لأجعل لك عندى قدراً .
 فقال عنقرة ضاحكا :

— وما الذى يحملنى على الكذب واتخاذ اسم عنتره شعاراً ؟
 إنما أعرف أن هذا الاسم لا يحمل لى إلا عداوتك وكرهتك .
 لقد كنت أطمع فى عفوك لو كنت بعض صعاليك العرب بعد
 أن شهدت ما شهدت من بلائى فى حربك ، فقد كان ذلك
 يطمعنى فى عفوك لعلك تتخذنى سائر الحياة من أعوانك .
 ولكنك تعلم أن عنتره لا يهب سيفه إلا لعبس ، ولست أطمع
 فى النجاة وأنا احبك بقولى فى إيوانك وبين شيوخ قومك .
 ثم اندفع كأنه ينشد قصيداً فرفع رأسه ورفع يديه مباهياً فقال :
 لكم كان اقومى من ثارات عندك وعند حائناك !
 ولكم وطئنا بلاد طىء ! وكم أخذنا من غنائم البحرين والعراق !
 وكم أغربنا على قوافلنا فى الحجيج ! وقد كنت أنا فى صدر
 الكتائب أحوز الغنائم وأنتت الجوع .

فقال الملك عاصباً وسط منخب الغيظ من حواره .

— أنتفخر على وتماهى بقتالى ؟ لقد كنت أطلبك أيها الشقى
 لأوقع بك عقابى . أنتفخر على أيها الشقى فى مجلسى ؟
 فقال عنتره : اننى أذكر الحق منذ سألتنى . واستأخسنى
 أن أقتل ، فكم قتلت من الشجعان ولم أشعر بخاجة ألم أو راحة

في قوادى . لست أطمع في الحياة وأنا الذى يعرف هوانها .
فقال الملك وهو يمسك نفسه :

— لم أكن لأطيل معك الحديث لولا أننى عجبت منك
واردت أن أطلع على خبيثة أمرك . أليست عبس اليوم من
حلفائى ؟ فما مجيئك إذا لم يكن طلباً للفخر، حتى تملأ فمك بأهلك
غزوت النعمان ؟

فقال عنتره فى هدوء :

— لا أيها الملك لم أرد بذلك فخراً .

فقال النعمان :

— انك فتى خدعك الناس منذ أتادوا بك وتحدثوا عنك
ورددوا شعرك . فحملك زهوك على أن تسعى الى الأسد
فى عرينه .

فضحك عنتره وأجاب :

— لكم سمعت الى الأسود فى عرائنها . ولسكنى أيها
الملك لا أطمح الى حديث الناس عنى فإله لم يجدنى شيئاً .

فقال النعمان فى مرارة :

— ألم يجدك حديث الناس شيئاً ؟ ألم يلحقتك أبوك بعبس

بفصل هذه الأحاديث ؟ ألم تكن لولا تلك الأحاديث
عبد شداد وابن زبيبة ؟
فقال عنترة في دفعة :

— إن من يذكرا مى لا يأمن أن أذكر أمه .

وعادت الغممة الحارقة إلى الجمع حتى رفع النعمان يده
عابساً يهدى الناس ثم قال :

— لا بأس عليك يا عنترة فإنها فلتة منى . وما كان ينبغي لى
أن أقولها وحياتك فى يدى

وصمت حياءً ثم قال فى لين :

— قل لى يا عنترة فيم أتيت إلى إذا لم ترد نحرأ ؟ فهل بيّت
قومك عداوتى فبعثوك لنتيرها ؟

فقال عنترة : لا أيها الملك إن قومى لا يعرفون أين مكانى
وليس بهم حرص إلا على مودتك .

فقال النعمان : إيك تحيرئى . فهل أنت نخبرى عن أمرك ؟
أم هو سر لا ينبغى لأحد أن يطلع عليه ؟

فقال عنترة متردداً : أما وقد أبيت إلا أن نعرف الحق فإنى
لا أضن عليك به . أيها الملك . فما أثبت إلا لأطاب مهراً لابنه عوى .

فقال النعمان في اهتمام : عبلة ؟
 فقال عنتره : نعم عبلة أيها الملك .
 فقال النعمان باسم : ولم تجد مهرها إلا من إبلى ؟
 فقال عنتره هادئاً : واني لى أن أجد العصافير إلا
 فى مسارحك ؟

فقال النعمان : وعلى رغم أنفى ؟
 فقال عنتره : لم اعتد سؤالا .
 فقال النعمان ساخرا : ولو طعنك أحد هؤلاء طعنة نفذت
 من ظهرك ودقت عظام صلبك ؟
 فقال عنتره هادئاً : ما كنت اذن سوى أحد من يقتلون
 فى الحروب .

فقال النعمان فى سخرية : اما تخشى حزن عبلة ؟
 فقال عنتره فى غضب : لو غيرك قالها ؟
 فقال النعمان : اجب ولا تحجب شيئا . لقد قلت فى خطائى
 ما لم يجرؤ احد على قوله ، فما حرصك على رضائى ؟ قل ولا تحجب
 شيئا .

فقال عنتره : لست اطلب سخطك وإن كنت لا اباليه .

فقال النعمان : إنما أردت ان اعرف مقدار حبك لها . لقد
تحدث الناس عنك وعنها حتى احببت ان اسمع منك حديثها .
فأطرق عنقرة حينئذ ثم قال : أما إذ أردت أيها الملك ان
أحدثك عن عبلة فقلت اضن به عليك . ان اسمها ليحلولى اذا
سمعته حتى لأحدث نفسي به لأسمع به حاليا .

أيها أيها الملك أعز على من انقاسى و احب من حوارحى .
ولو كانت حيانى تدفع عن عيها دمة لجدت بها راضيا . ولو
اعترضتنى الديران فى سبيل تلبية كلمة منها لأقبحتها . صورتها
لا تزال تؤنسنى ، ونغم حديثها ما يزال يتردد فى أذنى . لا أعرف
خيبرا إلا ما ترضاه ولا شرا إلا ما تخشاه او تأناه . ليس فى الحياة
جمال عدى إلا إذا كان فيه منها شبه ، ولو طويت لى الأرض
لما كان فيها شيء يكفى رضاءها ، ولو طأطأت لى السماء حتى
تفاوتت نجومها لأعديها اليها لوجدت ذلك دون قدرها .

فقال النعمان فى ارتياح :

إنك لتتحدث عنها حديثا عجبا . لقد سمعت شعرك ولا يكن

فى حارة قوزك ما هو أوقع من الشعر .

فقال عنقرة فى حماسة : هذا أيها الملك وصف اللمظ وليس

اللفظ سوى آلة ينقل بها الناس ما اعتادوا ان يحسوه في نفوسهم
من خسيس المعاني . إلا أن ما احسه في نفسه لعبلة يضيق عنه
اللعظ ، فهو ظل حائل وصدى فائر لا يصف حقيقة ما أحل لعبلة .
فقال النعمان في رقة : اذن فقد جئت تطلب مهرها .

فنظر عنقرة إليه كأنه يريد أن يتبين ما يقصد بقوله وهل
عاد إلى انسخيرية منه .

وأدرك النعمان ما يدور في نفسه . فقال بمادراً : أفتحب أن
تعود بالعصافير من باي ؟

فقال عنقرة كأنه يحلم : اذن انقيت لك أبد الدهر شاكراً .
فالتفت النعمان إلى رجل واقف عند رأسه وقال له :

— امض به يا أبا الحرث إلى بيتك وفك قيوده وعد به
أول شيء في الصباح .

والتفت إلى عنقرة باسمها وقال :

— وإنك منذ اليوم يا عنقرة ضيفي .

فنظر إليه عنقرة في دهشة وبسط يديه حيناً وثو عصا .

ثم صاح بصوت متهرج :

أيها الملك ! أيها الملك !

ثم طوى نفسه وأطرق وأدار وجهه وسار يسحب قبوده
ويجر أبا الحرث الموكل به من وراءه .

١٠

بقي عنقرة في الحيرة سنين لم يكن بحسب أنه سوف يقضيها
فيها ، ولقي عند المعان في أثنائها مكانة لم يكن يحلم أن الأقدار
تجري بها ، وحاز من الغنى ما لم يكن يخطر بباله ، وبلغ من الحد
ما لم يبلغه أحد من سادة القبائل .

وأقام في جوار صديقه العارس أنى الحرث صاحب النعمان ،
وقد انس إليه منذ عاشره وكان يطرب إلى سماع شعره ، فلا يكاد
يخلو منه مجلسه إلا إذا سار في كتيبة إلى غزوة من الغزوات ، فاذا
عاد لازمه في غدواته وروحاته وفي أماسيه ولياليه . ولم تبخل
الأقدار على عنقرة بالشرف الأعظم الذي كان لا يناله إلا الأقداد
من أبطال العرب وأدباؤهم بأن تقرب من ملك العرس كسرى .
وكان عنقرة بين حين وحين ينظر إلى خلفه ويذكر أيامه الخالية
كما ينظر الواقف فوق رأس الجبل إلى الوادى البعيد الذى يراه
درنه عند الأفق ، فيراه غامماً عامصاً يحيط به الصباب ولا تبدو منه

إلا أشباح ضئيلة تتحرك خافتة مثل أشباح الجن التي طالما ظهرت له أثناء تحواله في لبل الصحراء . ولكنه كان يرى في ثمايا ذلك الماضي الجاهم صورة حبيبة لم تستطع الأيام أن تمحوها . صورة عبلة التي وهب لها قلبه وجعل فيها مناط أمله . وكان لا يفتأ يتذكر كيف رحل من وطنه يطلب مهرها الغالى ، وكيف دفعه ذلك الحب اليأس إلى اقتحام المهالك حتى حرقته المقادير فأقام بالحيرة هذه المدة الطويلة، وضرب في أفق العراق وفارس، وحل في قصور مدائن كسرى، وقاتل مع أقوام لم يرهم من قبل، وحارب أقواما آخرين لم يكن بينه وبينهم ثار، فحارب في سبيل النعمان تارة وفي سبيل كسرى تارة كأنه قد أصبح وحشاً صنعته سفك الدماء . وكان كلما تأمل ذلك الماضي أحس شيئاً في صدره يشبه الثورة والحنق ، فأنها الأقدار أقحمته في عواصفها العنيفة وهو مرغم لا يكاد يستطيع منها إنفلاتا .

و بلغت تلك الثورة بعد حين مبلغاً جعلته يقبل على الخراج له يخرق في كؤوسها همومه ، أولعله يذهل عن ذكريات هذه السنوات بما فيها من مجد وما فيها من رق . فما كان مقامه عند النعمان ومحاربتة أعداءه بأقل في نظره من الرق وإن كان رقاً تحيط به هالة كاذبة

من زخرف الحياة . وكان كلما فرغ إلى ذكريات حياته الأولى بدا له رقه الأول أهون قيداً وأخف ذلاً . كان من قبل يغضب لأنه كان عبداً أشد ، ولكنه كان لا يحارب إلا لقوته لكي يحمي حريمهم ويدفع الأذى عنهم ، أولئك يفوز بالغنائم ويشتفي بإدراك التار من أعدائهم . كان يحارب من أجل عبلة وقوم عبلة لا من أجل هذه الأموال التي كان النعمان يغدقها عليه وهذا المجد الذي كان يلقي إليه أجراً لسيئته .

وأخذ يحس المال يارب إلى نفسه شيئاً فشيئاً من المقام في الحيرة ، ووجد أن ذكرى أرض الشرقة والعلم السعدي تعاود في فترات متقاربة ، فلا يكاد يمر به يوم بغير أن تتحرك فيه سمجونه عند الغدوات وعند الرياح . فإذا خلا إلى نفسه جاست به وسارزته حتى جعلت الحيرة تصغر في عينيه ، وحتى هانت عنده تلك الأموال والجواهر التي ازدحم بها منزله ، وخيل إليه أن هذه الذبل التي تمد بالآلوف ، وتلك النوق العصفير تنقله وتعهذه عن العودة إلى مرطن سعادته . وزاد قلقه إلى فراق الحيرة فاستأذن العمان مرة بعد مرة في السفر ، ولكنه كان يدافعه ويتمسك به حتى بانغ الغميق مبلغ منه التبرم ، فأقبل على الخمر يعب منها كل

ليلة ما ينسبه ضجره . وأتفق صديقه أبو الحرث عليه من ذلك الضيق فذبح له عند الملك حتى أذن له بالعودة إلى وطنه فسارع عمترة إلى الاستعداد وانتظر بقاب واجف يوم الرحيل .

وأعد له أبو الحرث مائدة حافلة في ليلة الوداع ، اجتمع فيها شيوخ الخيرة وفرسانها ، وكانت مائدة مساحتها في غناء ورقصها وخمرها . وشارك عمترة بأشاده من شعره فيها ، وأخذت الفتيت تفنى بقطع من غزله في عبادة ، حتى مضى أكثر الليل ، ولم يبق في المجلس إلا صاحب الدار وعمترة . فقال أبو الحرث :

— من يدري يا عمترة أين تدفع بن الأقدار غداً . فسجمل آخر عهدنا بالاجتماع حديثاً طويلاً . وجلسا يتسامران وينثران وقد مضى من الليل أكثره ، وعدأت ضجة الخيرة في سكون عميق .

وقال أبو الحرث وهو يملأ كأسين :

— ألك في كأس أخرى يا عمترة؟ إنني لا أراي أحسن عضداً . فقال عمترة — لا بأس على إذا شاركنك في أخرى .

فصاحك أبو الحرث وهو يبادر إلى كأسه فيجرع منها جرعة

كبيرة وقال : إنك لم تشرب الليلة كعادتك يا عنتره . وكأني بك لم تطرب .

فقال عنتره وهو يرشف رشعة من كأسه : إنني الليلة لا أريد إغراق شجوني .

فقال أبو الحرث : أما أنا فلقد راهنت على زقين من زقاق خانقين . وأحب لوراهنت على آخرين .

فقال عنتره : انت تعلم أنها تصدعني ، وأن رأسي لا يلبث معها أن يدور .

فقال أبو الحرث وهو يقرب له الفاكهة : ألا تذوق من هذا التفاح يا عنتره ؟ إنه من جنى حلب وهو يكسر شرة هذه الخمر .

ثم ملأ لنفسه كأساً جديدة ورمى فيها بعض زهر المناريج وأطال شمهها ، ثم جرغ منها جرعة طويلة وقال لعنتره :

— أراك تشم التماحة وتتمالمها معجباً كأنك تناجيها .

فقال عنتره وهو يقلب التماحة في كفه :

— إن فيها ما يهر نفسي .

ثم أخذ يغمغم في صوت خافت وأبو الحرث ينصت إليه . ثم أنشد أبو الحرث :

أشأفك من عبل الخيال المبرج فقلملك فيه لاهج يتوهج
 وانظر إلى عنتره قائلاً أترانى حوطت هذا البيت يا عنتره ؟
 فنظر إليه عنتره فى ارتياح وقال باسم .
 وإنك أشاعر يا أبا الحرث . أدك تحوط الشعر منذ تسمعه .

واندفع ينشد سائر القصيدة حتى قال :
 ثن أصحت الأطلال مها خواليا كان لم يكن فيها من العاش مبهج
 فصاح أبو الحرث متمماً :
 قد طالما مازحت فيها عبيلة ومازحى فيها الغزال المنج
 أليس هذا هو البيت ؟ ثم ضحك وقال على أريكتك فى فتور الحر .
 فقال عنتره ضاحكاً :

— ما أحب إلى أن تكون راوتى .
 ثم جعل ينتقل من قصيدة إلى أخرى وأبو الحرث يقطع
 بالبيت بعد البيت منها حتى مضى الليل وسمع عنتره صوتاً
 فقال فجأة :

— أما تسمع يا أبا الحرث حركة التوم ؟
 فقام أبو الحرث إلى طمف البهو وانظر إلى الراح المسميح الذى
 تحته وقال :

— صدقت يا عنتره . هذا الفجر قد بدا . وحق مناة إن هذا
الرحيل يوحش ديارنا .
فقال عنتره وهو يقوم :
— لئن شكرتك يا أبا الحرث فلست بمقادر على أن أوفيك
حقوقك .

ثم فتح ذراعيه وعانقه عناقا طويلا .
فقال أبو الحرث : لئن كان في الأيام مدة لكأت أمنيته
أن أراك .
فأجاب عنتره : ولئن تفرقنا فلقد عرفت فيك كيف يكون
الصديق .
ثم صاحفه ومضى حارجا وخرج أبو الحرث يشيعه صامتا إلى
المربد في الفضاء الفسيح خارج البيت .

١١

سار عنتره في ركبته العظيم يضرب في الصحراء عائداً إلى أرض
الشرّة والعلم السعدى ، حتى قطع فيافي اليمامة ونجد ودخل الى
أرض الحجاز . ولكنه كان كلما اقترب من وطنه خالجه الشكوك

والخواف ، وأحس كأن الشعلة المتقدة في صدره تضمحل وتخبو .
فكان بين حين وآخر يسأل نفسه عما هناك في تلك الأرض التي
كان يتحرق لسكى يعود إليها . وهل إذا هو عاد إليها وجد عبلة
لا تزال مقيمة على عهدا ؟ وكان أحياناً يبلغ منه الشك ان يسأل
نفسه أهو حقاً يحبها كما خيل إليه أم هي لاجبة ألهم تزعم له انه
لا يزال يحبها .

وكان أحياناً يتمثل نفسه كأنه لقيها وحديثها فلا يدري كيف
يكون حديثه وحديثها بعد أن فارقتها تلك السنين ، وبعد أن عاشر
من عاشر من أقوام لا يشبهونها . لكم رأى من النساء وكم استمع
الى غناء القينات البارعات الحسن من بنات العجم والكرد
والأرمن ، وكم اعتاد فى حديثهن أن يتفرق وأن يعبث وأن يمجن .
فهل كان الحديث السهل الذى اعتاده من قبل مع عبلة يواتيه
إذا لقيها أم يمتنع عليه ؟ وهل يستطيع إذا رآها أن يتذلل لها كما
كان يفعل ويسمى نفسه عبدها ، ويجد متعة فى كلمة يسمعهها أو
بسمه عطف يضىء قلبه بها ؟

ولم يخل قلبه كذلك من القلق كلما تأمل قومه بعد أن غاب
عنهم تلك السنين . فهل يعود ليجد عمارة بن زياد ومالكاً معه

وعمرأ انه ويجد أباه واخوته جميعاً كما تركهم ؟ وهل يستطيع أن يعود إلى معاشرتهم وهم الذين عرف كبرياءهم وعنادهم ؟ وهل يرضى أن يلقوه بما كانوا يلقونه به وهو عندهم عنزة الذي من عليه أبوه شداد ذات يوم بحريته وتفصل عليه بأن نسبه إليهم ؟ كان كلما اقترب من وطنه ثارت تلك الشكوك في نفسه حتى كاد يحس أنه قد صار غريباً عن قومه ، وأنه قد أطاع وهماً كاذباً عند ما اعتزم أن يعود إليهم ، ومفارقة قوم آخرين كان يعيش بينهم سيداً ، ويسمر في نواديهم ، ويعاملهم ويخاطبهم ويقاتل معهم وهو عنزة بطل العرب . فهو لاء الذين عرفهم في الحيرة وفي المدائن لم يقولوا له يوماً يان زبيبة ، ولم يعيروه يوماً بسواد لونه ولا بهجنة نسبه . بل كانوا يعدونه سيداً كريماً لأنه كان سيداً كريماً ، وقدموه وأعلوا مكانه لأنه كان جديراً بالتقديم والمكانة العالية . فما الذي حمله على أن يصيق بالمقام فيهم لكي يعود إلى هؤلاء الذين نشأ فيهم عداً رقيقاً ، وقضى معهم الحياة في نضال وكفاح حتى خرج عنهم أحياناً يصرب في الأرض لكي يطلب مهر عبلة من عرين الأسد ؟ وقد حدثته نفسه مراراً أنه قد أخطأ وأن الأولى به أن يعود أدراجه إلى حيث يُقيم عزيزاً ،

ويغالب هذا القلب الذى طالما أذله وعذبه . واسكنه مع ذلك سار فى طريقه يدومعه دافع غامض كأن الأقدار هى التى كانت تسيره نحو غاية لا يدركها .

ولما صار فى أرض الشرّبة بعد طول السير رأى أن يعرج على الوادى الرملّى الذى طالما شهده وهو يرعى إبل شداد ، ذلك الوادى الذى كان مسرح صباه وشبابه .

وخطر له ذكر تديبوب الذى أحبه وصاحبه وكان فى كل مكان معه ، فتارة كان جاسوسه وتارة كان رسوله ، وحينما كان خادمه وحينما كان سميره ، حتى فارقه فى العراق بعد أن رأى الفرسان يحيطون به ويطعنونه ويصرعونه عن فرسه الأجر . ولم يدر أكان ذلك الأخ لا يزال حيا يرعى إبل سادته أم قد مضى فى سبيله كما مضى عن الدنيا من قبله ويمضى من بعده . ذلك الأخ الذى عاش ما عاش عبداً مرحاً ينعم فى رقه ولا يعبأ إلا بضعامه وشرايه وصيده ونسائه ، ولا يرى الحياة إلا مهزلة لا تستحق شيئاً سوى أن يسخر منها ويلهو فيها ثم يمضى عنها مرحاً اذا حان أجله .

ولما اقتربت القافلة من الوادى رأى عمرة على البعد شيخاً

على ربة فخرق قلبه وعادت اليه صور الماضي حية كأنه لم يفارق تلك الأرض إلا منذ ليلة . وصوب بصره الى الشخص ففعل يقامله ، وأحس شيئاً في قلبه يتحرك اليه ، فهز حواده وأسرع نحوه وهو لا يزال ينظر الى وقفته متمكناً على رجليه . فلما اقترب من الربة رأى شيبوب ينظر اليه ولا يعرفه . فلما صار منه على مسمع ناداه باسمه ، فما كاد شيبوب يسمع صوته حتى وثب نازلاً في قمزات واسعة وهو مشمر عن ساقيه الطويلتين فاتحاً فيه الواسع في بسمة تكشف عن أسنانه البيضاء . وترجل عنقرة ووجد نفسه بين ذراعيه وهو يقل وجهه وكتفيه باكياً ويصيح : عنقرة !

فقال عنقرة وهو يصمه في حرارة :

— أنت هذا يا شيبوب مرة أخرى . إنك لأول من أرى ، وإنك لأول من أحببت أن أرى .

فقال شيبوب بصوت مختنق :

— وأنت هذا أراك حياً . أنت هذا حي المسك بيدي وأضمتك إلى صدري وأحس دفء أعضائك .

ثم أرسله من ذراعيه ونظر اليه في دهشة وقال :

— إني لا أكاد أصدق عيني .

وجعل يصعد فيه بصره ويصوب به فقال عنترة وهو يأخذ بذراعاه:

— أترى فيّ ما تنكر يا شيبوب؟

فقال شيبوب في هرة فرح:

— إن السرور يعقل لسانى .

فقال عنترة وهو يسير به بعيداً عن الطريق:

لقد افتقدتك يا شيبوب واشتقت إلى حديثك . فمل بنا إلى

هذه الربرة فإنّ بى شوقاً إلى حديثك .

فقال شيبوب وهو ينظر نحو القافلة العظيمة التي كانت تسير

مبطئة محوها :

— ألم أرك صريعاً وقد أحاط بك الفرسان يطعنونك ؟

أهذه القافلة لك ؟

فضحك عنترة وقال : أ كمل قصتك يا شيبوب ، رأيت

الفرسان يحيطون بى ، ثم أطلقت ساقيك المريح تطلب النجاة .

فقال شيبوب : وهل كنت لأغنى عنك شيئاً ؟ انى فكرت

فى مثل لمح البصر ان حير ما أوعله أن أهرب وأججو بنفسى .

فقال عنترة ضاحكاً : لكى تأتى إلى هنا فتنظرنى . إن

الحياة حلوة يا شيبوب أليس هذا ما حملك على الهرب ؟

فأجاب شيبوب جادا : قلت أعود إلى قومك فأناك إليهم ،
فما كل يوم يقتل مثل عنقرة .

فقال عنقرة : ونعيتني إليهم ؟

فأجاب شيبوب : وقضيتما شهراً نبكى . لكم نكت ربيبة .
إمها لا تزال تبكى ولا تصدق أنك هلكت . وما رالت ترعم
أنك عائد إليها وأنا أ كذبها .

فقال عنقرة في رقة : مسكينة أُمى . ما أحب إلى أن ألقاها .

وأمسك لحظة وهو مطرق ثم قال :

— وهؤلاء يا شيبوب . كيف حال هؤلاء ؟

فرد شيبوب في امتعاض : أتقصد عبلة ؟

فقال عنقرة في اهتمام : كيف هي يا شيبوب ؟

فقال شيبوب مختصراً : هي امرأه .

وكانت القافلة قد بلغت موضعهما ، فصاح عنقرة بأمر بالنزول ،
ثم المعت إلى أخيه فقال له .

— تقول هي امرأة ؟

فقال شيبوب : يجتمع الغميّات إليها كل يوم يرقصن ويعنين

قبل زفافها . لقد عرفت النساء وما هي إلا امرأة . هن يبيكين يوماً ثم يرقصن ويغنين سائر الحياة .

فقال عنتره وهو يغمض عينيه : أهو عمارة ؟ أم هو ابن زياد ؟
فقال شيبوب : إنك لا تزال تهواها .

فقال عنتره في حزن : دع ذلك يا شيبوب ونثنى هل هو عمارة ؟

فقال شيبوب : إنه هو . ذهب إلى أبيها بعد أن سمع أنك قتلت .

فصاح عنتره : ومن قالها ويملك ؟

فقال شيبوب في خجل : ألم أرك صريعاً ؟ ألم أرك الرماح تتخطفك ؟

وأدار عنتره وجهه في حنق واستمر شيبوب قائلاً :

فعرض عمارة على مالك ألف ناقة مبرأً لعملة . وهل كان أنوها المتكبر ليأبى ألف ناقة ؟ فرصى به مسرعاً ولم يسأل إذا كانت من العصفير أم هي من النسور .

فأطرق عنتره صامتاً وقال شيبوب ناظراً إلى القافلة العظيمة التي تغطي الفضاء .

— ولكن كيف بلغت هذا ؟

فارتاح عنترة إلى تغيير الحديث وقال فى حزن :

— أنسأل الأيام كيف تعبت بما ؟ أنت رأيتى فى حلقة

نهرسان يضعونى ثم أسرت وسجنت . ثم جىء بى إلى مجلس
الذعمان ليقتلنى . ثم خرجت من المجلس أقرب الناس إليه .

فتبسم شيبوب وقال : نيتى كنت معك .

فقال عنترة : ومن يدرى يا شيبوب اهل الأقدار كانت تجعل

أجلنا معا .

فقال شيبوب ضاحكاً : أما وحق مناة لو كنت معك لكان

لى مع القوم شأن .

فأجاب عنترة باسماء : ولكم لم تبق معى والشكر لمناة .

فنظر إليه شيبوب فى إعجاب وقال : لشد ما تعيرت يا أحمى !

فأجاب عنترة كأنه يحدث نفسه : لقد تقلب بى الدهر

وهزهنى . كم حروب شهدتها وكم بلاد رأيتها . قضيت هذه

السنوات لاهياً عن نفسى فكنت لا أعرف إلا الحروب والدماء ،

وكنت أسمع أصداء الحديد كأننى أسمع غناء العذارى . كنت

مثل الوحش الضارى أحب شىء عندى منظر الدماء . لم

أحارب طلباً لثأر، ولا دفاعاً عن حرم بل كنت أشعر بالغيظ
 يملأ قلبي كي رأيت دوى قتالاً . فكنت أقتل وأقتل وأقتل
 ولا تسفى مع ذلك غيظي . ولكن حدثني أنت يا سيديوب عن
 قومك . كم غزوتهم وكم غزيتهم ؟ وكم غنمتم وكم غنم الأعداء منكم ؟
 أما ذكركم عترة يوماً ؟ أما افتقدتم مكاناً في ليلة ظمأ ؟
 فقال سيديوب في حرارة :

ما زلت أذكرك في صباحي ومساءلي . وكلما تذكرت كيف
 رأيته صريعاً وثبت . ن الألم كأن ناراً تحرق قدمي . وكثيراً
 ما ندمت على أني لم أبق معك حتى نقتل جميعاً . كانت الحية
 وحدي كئيبة يا عترة . وهما أنت ذا تعود إلى مرة أخرى .
 ولكنك تغيرت .

دأرق عترة صامتاً كأنه غلب في فكره واستمر سيديوب
 فقال :

— لقد ما تغيرت يا عترة حتى كأنك لست أنسى . ولولم
 أكن أعرفك وأعرف كل جارحة فيك لكذبت نفسي .
 ولكني أعرف كل ضمع من يدك . فهذا جرح يوم عبعب
 وهذا جرح يوم المرير ، وهذا القطع صديك يوم عراعر ، وهذا

الذى كاد يودى بك يوم غزوة طيء ، وهذه طعنة عمرو بن ود العامري . وتلك طعنة مسحل بن طراق الكندي . أتذكر ذلك الكندي انتهى حارته من أجل عبة ؟

فرفع عنقته رأسه في شيء من الخنق وقال :

— ولكن ما جدوى حديثك هذا ؟ إني أسألك عن هؤلاء .
فقال شيموب متودداً :

— إني أذكر هذه الآثار لأنها تذكرني بأنك أحي ، ولولاها لما صدقت عيني . إني أ كاد أخاف من النظر إليك وأسهر هيبه في حديثك .

فلم يملك عنقته إلا أن يضحك في حزنه وقال :

— ومع ذلك فأنت لا تحدثني إلا عن نفسك ونفسي .
فقال شيموب :

— وحق مناة ما رأيتك امرأة إلا نمت أن تكون لها بعلا . إسمع نصيحتي فأنا أ كثر الناس علماً من . لقد خرجت من عبس وأنت عنقته . ولكنك تعود اليوم أمراً آخر غير عنقته . لقد كنت أحبك لأنك أحي . كنت رفيقاً وكنت عنيفاً ، وكنت ذليلاً وكنت متكبراً ، وكنت قوياً وكنت

ضعيفاً . ولكنى كمت دائماً أحبك ولا أنكش إذا نظرت
إنيك عابساً .

وأما اليوم فأنت رجل آخر . ومنذ رأيته وددت لو صرت
لك عبداً . فكيف هذه النسوة إذا رأين كل هذه القاملة التى
تسير وراءك ؟ وكيف هن إذا رأين هذه الريشة التى فوق
عمامتك وتلك اللآلىء الراقية التى تتلألأ من تحتها ؟

فصاحت عنقرة وقام يسير فى الوادى وسيدوب يسير وراءه
وقال : أما إنك يا سيدوب لا تزال كما كنت حينئذ . ألا تذكر
كيف كنت توقد غيطى ثم تطعمه ، وكيف ترسل الحقد فى قلبى
ثم تسله كما تسل الشوكة من الأديم ؟ أنت لا تزال كما كنت .
فقال سيدوب وقد اتسعت بسمته :

— أضعنى يا ابن أحمى ولا تطع كريدك . إنك وحق ممات
حدير بأن تكون ملكاً . واسوف أخطبك لك هند ابنة زهير
سميد عيس .

فصاحت عنقرة وقال . حدثنى عن عملة يد سيدوب فإن لى
ظماً إلى الحديث عنها .

فقال سيدوب : تلك التى زعمت أنها لك وأنها تنتظرك وإن

تطاول الانتظار بها آخر الدهر . إننى أريد أن أقطع قلبها كما
قطعت قلبك .

فقال عنتره فى اهتمام : أما حزنت ؟ أما بكنت ؟ أما شقت
على ثوبها عند ما نعيمتى إليها ؟

فقال شيبوب : نعم بكنت . ثم حزنت حيناً . وليكنها أطاعت
عقلها بعد ذلك ورضيت بأن زياد . وموعد زفافها يوم عروبة .
ثم جعل يعد الأيام على أصابعه وقال : بعد ثلاثة .

فصاح عنتره : تقول إنهم رضيت ؟

فقال شيبوب : أما قلت لك إن أباهما قد رضى ؟ سوف
تحرق قلبها وقلب مالك بن قراد . سوف أزوجك من هند ابنة
زهير . وإن يستطيع أخوها قيس أن يأناسها عليك . . . أخوها
قيس ، فإن أباهما زهيراً قتل .

فقال عنتره حزيناً : هند . قيس . زهير . هذه كلها أسماء
أسمع لفظها ، ولكن عبلة قد تزوجت . إنك قلت قد تزوجت .
أيس هذا ما قلت ؟

فقال شيبوب : قلت ذلك .

فقال عنتره : إذن فهل قدر على أن أعود إلى عبس لىكى

أرى عرسها وأنا بعيداً كل قلبي غيضاً ؟ إذن لقد قدر على أن
أقطع هذه الصحارى في سبيلى إليها لكي أمر بعرسها آخر الأمر
مكدوداً مثل المسافرين المسكين الذى يريد الحج إلى الكعبة إذا
مر في طريقه الضويلة بقصر البخيل الذى يحبي وليمة للعظماء ،
فيمنظر إلى الأضواء المنبثقة من القصر ويسمع أصوات الغناء
ويسمى له من الجوع إذا شم رائحة السواء ، وهو يسأل بصوت
خافت أن يرسلوا إليه طعاماً فلا يسمع أحد صوته .

ثم أطرق حيناً ومضى شبيبوب في حديثه عن حوادث تلك
السين التى كان فيها عنقرة بعيداً . ورفع عنقرة رأسه بعد
حين وقال :

— أنت ملأت قلبي حزنًا . وأحس كأن هذا الفضاء يضيق
بى . أقلت آثماً أن عبلة كانت تغنى ؟

فقال شبيبوب : لم أقل لك إنها تغنى . هن الفتيت يغنين هنا
ويجتمعن للرقص عنده . ولكنهن امرأة كما قلت لك وتحب
أن تكون زوجة رجل من سادة قومها . وسوف تنظر إليك فى
أسف إذا رأتك وتأك كل قلبها غيضاً . سوف تحزن عليك إذا
رأتك تدخل إلى عبس بهذه القافلة كلها .

فقال عنصرة في حرن : أمسك ويالك يا شيبوب . فان الجرح لا يزال دامياً . كمت حسنته قد اندمل وكنت أسأل نفسي كيف أكون إذا عدت إلى أرضي . وها أنت ذا تعيدني إلى نسي القديمة فجأة كأن تلك السنوات قد طويت كلها في يوم . فأنا اليوم كما كنت لم يتغير في قلبي شيء .

فقال شيبوب : وأما أنا فان قلبي ممتلئ حقدًا كما كان . فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء فتتذلل لهم وتطلب منهم شفائهم وهم يسمونك ابن زينة ؟

فقال عنصرة حزينا : است أدري كيف ألقى هؤلاء ولا كيف يلقي هؤلاء . أنني نسيتهم حينًا وخيّل إلى أني لن أحس لهم حلججه في نفسي . ولست أدري إذا عدت إليهم كيف يكون عيشي فيهم .

وأمسك عن الكلام لحظة وهو مطرق ثم رفع رأسه وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال :

— ان أتعرض لعارة ولن أنقدم إلى مالك أطالبه بوعده .
لست أعرف أحداً من هؤلاء . فأما أنا أعرف عبلة . ولن أرضى أن تكون لي امرأة إلا إذا أحببت هي أن تكون زوجي .

فصاح شيبوب : أو ترعى بها ؟
 فقال عنقرة : قل لى يا شيبوب كيف هى ؟ متى رأيتها ؟
 هل ما رالت تطلع كالشمس وتزهو كالقمر ويفوح نسيمها
 كالزهرة ؟ قل لى أما سمعتها تتحدث عنى ؟ أما قالت زبينة إنها
 تحدثت عنى ؟ لقد حدثت نفسى مراراً أن أصرب وأن أطعن
 وأن أقتل حتى أفوز بها قسراً . ولكنى اليوم يا شيبوب حزين
 لا أريد ضرباً ولا طعناً . أنا أحبها ولكنى لا أرضى أن أفوز بها
 إلا إذا كان ذلك عن سبيل قلمها .

فصحت شيبوب وقال : ما أهون هذا ! اطلع عليها بهذه
 الإبل وسوف تفوز بقلمها .

فقام عنقرة وأمسك بذراع أخيه وقال له جادا :
 — اسمع يا شيبوب وأطعنى . ولا تتردد فى حرف مما أقول .
 عدنى أن تطيع بغير حرف تقوله يا شيبوب .
 فنظر إليه شيبوب فى دهشة ثم قال بعد لحظة : ستمجيدنى
 مطيعاً .

فقال عنقرة جاداً : است أحب أن أعود إلى عس إلا كما
 خرجت منها . إبنى لا أحرص على غنى ، فإننى أقدر على أن أجد

قوتى بسهمى وقوسى وان أحرص على جاه ولا نسب ، فانى قد
رأيت من الحياة ما جعلنى أسمو فوق كل هذا . قد كنت أغضب
لأشياء أراها اليوم لا تغصنى وكنت أحرص على أشياء أخرى
لا أجدها اليوم جديرة محرصى .

كنت أحتقد على الناس عند ما كنت لا أعرف لى مكاناً
بينهم ، والسكنى اليوم لا أبالى من يكون أنى ولا من تسكون أمى
ولا أين أحل بين الناس . هو شىء واحد لا أجد فى الحياة عنه
عوضاً . وذلك حب عبية . والسكنى حبه ، هى لا يسكى أمسكها .
أحبها لسكى يكون قلبها لى .

ثم التفت إلى القافلة العظيمة وأتار إليها قائلاً :

— أترى هذه القافلة التى تملأ البطح ؟ اذهب بها الآن
إلى منازل عبس ، وسأبقى أنا ههنا حتى تغدو إلى بعد أن تفرع
مها . اذهب بها ثم ناد المساكين الذين يسرون ههنا ورأى ،
وأولئك الذين كانوا من قبل يحاربون معى ، والصعاليك الذين
كانوا يلوذون لى . ففرق كل هذه الأحوال فيهم حتى لا تبقى منها
شيئاً . وهذه الإبل التى تراها بين سوداء وبيضاء . فرق هذه
بين الصعفاء حتى لا تبقى منهم واحداً بغير عطاء . فاذا بقى منها

شئ فأنحره، وألقى بها في القفر لتكون وليمة لوحش السباع .
وهذه الذوق العصفير التي أتيت بها لتكون مهرأة لعلبة .
إذهب بها إلى مالك بن قراد وقل له هي هدية إليه لينحرها
يوم زفافها ، فيطعم منها قوم عمارة بن زياد ومن يجيء من أحياء
العرب يشهدوا عرسه . ثم أحمل هذه الأحمال التي تراها على
الإبل السوداء فقد أودعت فيها تحفاً من طرائف المدائن لتكون
هدية لعلبة يوم جلوسها ، خذ هذه واذهب بها إليها وأبلغها أنني
كنت وعدتها يوماً في غضبي أن أهدي إليها هدية عند زفافها .
قل لها هذه هديتي بدل التي وعدتها . قم منذ الساعة ولا
تنطق بحرف .

ثم ذهب إلى القافلة فأنزل بعض الأحمال ونحأها إلى جانب
قائلاً :

— أما هذا فنصيبى . هذه خمر معتقة أجعلها نصيبى ، لعلى
أقدر على أن أغرق فيها همومى .
وحاول شيبوب أن يتكلم فأشار إليه عنقرة بيده يأمره السكوت
قائلاً :

— لقد وعدتني أن تطيع يا شيبوب . إذهب فافعل ما أمرتك

به . فاذا أرادت عبلة أن تختارنى بعد ذلك وجدتنى كما خرجت
من عبس يوم خرجت وحيداً .
أقلت إن موعد زفافها بعد ثلاثة .
فقل شيبوب حزيناً : نعم يوم عروبة .
فقل عنتره : سأنتظرك هنا . إلى أن يمضى عروبة .
ثم وثب على فرسه وركبه وأغمد فى جنبه حد الركب ، فانطلق
به فى الوادى
ووقف شيبوب حينئذ ينظر فى عقه به فى دهشة . ثم امر راسه
ونادى الركب أن يتجهز للمسير .

١٣

أمضى عنتره الأيام الثلاثة يصرب فى فجاج الصحراء يصيد
طعامه ، ويعكف فى الليل على زقاق الخمر المعلقة . وكان فى أثناء
ذلك موزعاً بين موجات عنيفة من أشجان متصادمة متعارضة .
فحينما يشور به موج من الحزن والجوى حتى يرى الفضاء يصيق
به ويود لو لقي عدواً حانقاً فيسد طعنة إلى قلبه فيخلعه من
الحياة ، وحينما تملؤه موجه أخرى من الغضب فيهم أن يذهب إلى

قومه فيسوى مع خصومه الحساب عسيراً لما أصابه قديماً وما
أصابه حديثاً . واعتريه بين هذه وتلك حالات هدوء ساهم
واجم فيحس كأن قلبه قد انصرف عن كل شيء ، وأنه سلا عبلة
فلم يبق لها عنده ما يحمله على غضب ولا على حزن . وكان
في أثناء ذلك كله ينتقل بين شعاب الجبال وثناياها حيث كان
ينتقل من قبل وهو يرعى إبل أبيه تداد ، يغنى وينشد الشعر
ويحدث نفسه عن عبلة خائياً . فكان كلما عرج على موضع ثارث
به ذكر ياته فيقتضى في تأملها حيناً كأنه في حلم ثم يمضى عنه وهو
يغمغم ببعض أشتار مما قاله عنده فيما مضى .

فعرج على الصخور الملساء التي طالما توقل فيها بعد نزول المطر ،
وطالما شرب من ماء البارد المتجمع في فجواتها ، واضع فيه على
صورة وجهه وهو حزين لأنه لا يشبه وجوه العتيان الدين كانوا
يسرون في عس معجبين بلمعهم السوداء . وعرج على بطون
الوديان التي تشقق ضيقها الأصفر بعد أن جف وغطى سطحها
العشب والشوك والصبير والحنظل . وكان يميل بين وقت وآخر على
زهرة من العرار أو الخزامى أو الأقحوان ، فيأمل لونها وشكلها ويشم
رائحتها ، كأنه يلقي صديقاً عزيزاً بعد أن فرقت الأيام بينهما حيناً .

وكان في تلك الجولات يقف أحياناً فيرفع ذراعيه ويملاً صدره من الهواء ، كما كان يملؤه وهو فتى ، بعد أن قضى تلك السنوات الماضية في عواصم الريف لا يكاد يعرف كيف يملأ صدره من الهواء .

فاذا تذكر أيامه التي قضاها في الخيرة ولمدائن وتذكر تلك القافلة العظيمة التي عاد بها تحمل الجوعر والحلى والحلل والتحف من طرائف فارس والروم وأذربيجان ، ثم تذكر أنه بعث بكل ذلك مع أخيه سيبوب ليمرّقه في عبس بين الصغفاء والصعاليك ، أحس ارتياحاً كأنما قد تخلص من ثقل كان يجثم فوق صدره ، ودب إليه شعور عجيب بأنه قد استعاد روحه الذي كان قد فارقه منذ دخل أرض العراق .

وعند ذلك كانت تلك السنوات التي قضاها بعيداً عن أرضه تلوح له كأنها سنوات سجن ضيق شامت فيها نفسه حتى كاد ينكرها ، وتغير فيها قلبه حتى كاد يصير إلى قلب وحش ضار . وخيل إليه أنه قد عاد إلى حيث يستطيع أن يعرف النور والظلمة وحيث يرى النجوم الساطعة والبدر المتألق الزاهر ، والشمس التي تبسم حيناً وتحرق حيناً ، والهواء الذي يعصف حيناً

ويهب في وداعة حيناً . هنا كان يستطيع أن يأكل من ، صيده
ويصادق صديقه ويعادى عدوه ، فإذا ذهب بعد إلى غزوة ذهب
إليها مع قومه لكي يغنم معهم غنيمة ، وإذا حارب عدواً مغيراً
حاربه ليدافع عن حرم عبس وعن شرفها . فلم يكن بعد
ايحارب كالوحش الصارى ، ولا يجد مكافأته في سفك الدماء
والاستكثار من الغنى . لقد عاد إلى أرضه حيث يستطيع أن
يستعيد حياته التي كان يحس فيها معنى الحياة .

كان يحزن ويفضب ويأمل ويبتئس ، ولكمه كان
في كل ذلك يجد في الحياة علالة تجعله يحرض عليها .
ولم يخل قلبه في كل تلك الجولات لحظة من ذكر عبلة ، ولكمه
كان كلما ذكرها عجب أشد العجب من التغير الذي أصاب
حبه لها . كان حباً ثائراً دفعه من قبل إلى قتال كل من
حدثته نفسه بزواجها ، فأصبح حباً عجيباً فيه عتب على عبلة
وحدها ، ولا يابلى بعد ذلك أحداً . فلم يحس وخرة غضب
عند ما تصور أن عمارة سوف يزف إليها ، ولا عند ما عرف أن
أباها قد رضى تنزويجها ، ولا عندما قال له شيدوب إن العتبات
يجتمعن عندها يرقصن ويغنين في انتظار يوم جلوتها . وكأما

كان يشعر في قرارة قلبه اطمئناناً الى أنها لن تتزوج ولن ترضى بأن تزف إلى عمارة وأنها سوف تعود اليه هو معذرة ما كية . وكبر تذكرة أنه بعث اليها هداياه وأنه بعث إلى أبيها مهرها داخله وع من لا يتهج . كأنه قد أدرك منها ومن أبيها ثراً كمن له عندها . فإذا لم حضر له أنه قد يعود فيجدها قد صرت زوج عمارة لم يدحه رأس ، بل وجد في نفسه قدعة أن يقضى سائر الحياة عتبا به حتى صورتها في حزن وكرباء .

ومضى اليوم الثالث وانقضى يوم عروبة الموعود ، وكان قد عاد إلى الربوة المشرفة على الحى من بعيد ، وهبط الظلام فجأة بعد أن غربت الشمس وانكس القمر لم يابث أن أضاء الفصاء . فأخذ عنقرة رقاً من الخمر وفصالة من لحم غزال مشوى بقى عمده ، ثم صعد إلى أعلى الربوة وجلس يشرب وهو يتأمل السهل الممتد تحت عينييه . رآه إلى ناحية الحلة التي فيها قبره وقد بدت على المعد في ضوء القمر عامضة كأنها ظلال من سحابة داكنة ، تمر تحت الشمس ، وجعل يتأمل الفيران مؤقدة بين البيوت أعاد يرى عند شعب الجواء نيراناً مشبوبة تدل على ليلة الزفاف .

ولسكنه لم يتبين على البعد من شعب الجواء سوى ظلال
عامصة في ضوء القمر الخافت تلوح مثل منظر الأحلام . هذه
هى البقعة التى تقيم فيها عبته وأهلها تمدوله مثل نقطة ضئيلة
فى الليل ، وهى التى حركته ودفعته وأثارتها . هى التى أحزنته
حينئذ وبعثت فى صدره الأمل حينئذ ، وهى التى خرج من
أجلها إلى العالم المسيح الذى كاد يسلبه روحه ، ثم هى التى عاد
من أجلها . يصرب فى خراج الصحراء ، ويقطع قلبه قلقا ويقضى
لياليه ساهدا بقلب البصر فى الآفاق خاشيا أن تلوح له فيها نيران
تأنيء بليمة الزفاف .

وبقى عنتره يشرب ويقلب نضره فى الفضاء حتى طلع الفجر
وغنى إغماءة طويلة آفاق منها على صوت يماديه والشمس ترسل
سعاها عليه من وراء القلال .

وأصاخ بأذنه إلى الصوت فعرفه ونهض مسرعا يتب فوق الرمال
حتى وجد نفسه بين حصان امه زبيبة ، وكان شيبوب وقم
إلى جوار بعيرها يريد أن يميحه . وأرسلت زبيبة ابنها من بين
ذراعيها ورغردت وهى تنظر إليه فى ابتهاج ، ثم أتمت نفسها
عليه مرة أخرى تقبله وهو يمسح على رأسها بهطف وقال لها :

— إنك لأول من كنت أحب أن أرى اليوم يا أماء .

فقالت في صوت مختنق :

— لقد أحسست منذ أيام أنك قريب منى . كمت أعرف
دأماً أنك عائد إلى ولم أصدق ما قال هذا .

وأشارت إلى شيبوب بنظرة لائمة ، وكان واقفا حياها يبسم
ابتسامته الواسعة . ولم يجد عنثرة في دفعة اللقاء ما جعله يتفرغ
لتأمل ملابس أمه وأخيه ، إذ كانا يلبسان مجموعة من الثياب
عجيبة اختارها كل منهما من بين أنحال القافلة طاعة لهواه .
فكانت زبينة في حلة حمراء ، وجعلت في قدميها خفا من القرو
الأسود ، وتمنطقت بمنطقة فضية نزعتها من حائل سيف ، وتقلدت
ببعض قلائد من العقيق والمرجان ، ولبست أساور من الكهرمان
والفضة تتدلى فضفاضة عند رسغها .

وكان شيبوب يلبس مثلها ثيابا عجيبية من عمامة ذات ريشة
ولآلىء ، إلى ثوب محلى بالقصب إلى سيف مرصع بالجواهر ، ولم يبخل
على رمح ببعض الحلية من عقود المرجان وشرائط الحرير .

وتبسم عنثره عندما تنبه إلى ملبسهما بعد حين ولكنه لم يجد متسعا
للحديث فقد كانت عبس تتحرك نحوه بكل من هناك من أهلها .

ونظر عنصرة إلى القادمين وتهلل وجهه فرحاً ، وانتفت إلى
شيبوب وقال له هامسا : اكان زفافها ؟

— فأشار شيبوب إليه إشارة مرحة قائلا :

— سأحدثك حديثاً طويلاً .

وجاء القوم جماعة بعد جماعة يحيون عنصرة ، وكان فتيان عباس
فوق خيولهم يتلأون البطحاء الممتدة في أسفل الربوة ، يهتفون
باسم عنصرة ويترأكضون ويلوحون بالرماح والسيوف . وجاء في
صدرهم قيس بن زهير وآل جذيمة سادة عباس ، ثم أقبل أبود شداد
وأخوته وجاء السيوخ من آل رباد ، حتى عمارة نفسه أقبل عييه
يحيميه . وكان عنصرة يلقيهم باسماء ويحييهم في هدوء وهم ينظرون إليه
في عجب أن يكون ذلك هو عنتره . وكان يلقي إلى كل فرد تحية
هادئة مع كلمة عطف ومودة ، وكان يحس سعادة كبرى كلما رأى
على قومه بعض هداياه . وكان النساء والعمتيات يقبلن عليه
ضاحكات يرحبن به ويرفعن بأصابعهن ما حول محورهن من
العتود المتلائة التي أهداها إليهن ، أو يلوحن له بمعصهن ليظهرن
الأساور التي تحليها مما فرق شيبوب بينهما .

ثم أقبل مالك بن قراد في أهله ، ثم جاءت أخته مروة ابنة شداد

وإلى جانبها عبلة تمشى على استحياء ، فرآها مقبلة تنظر من بعيد إليه بعينها الواسعتين لا تطرف ، وتكاد تنعثر في مشيتها . وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة ، ولكنها كانت مترددة فيها شيء من الارتباك وشيء من التلويح .

وحيا عنترة اخته مروة باسم عاطفا ، وهمت في نفسه ثورة كادت تنفلت من حكمه ، وفكر في مثل ملح البصر ما هو قائل لعبلة بعدها . ألتقاها في جده صامت أم يقرعها بتمحية من اللوم قاسية ؟ ومرت عليه لحظة قصيرة طويلة امتلأت فيه نفسه حفيظة وحنقا ، وكاد ينطق ولكنه سمع اخته مروة تصحك وتقول له في عثمها الذي اعتاده منها :

— لقد حسبت أنك سوف تخطف عبلة منذ تراها .

فبضر إلى عبلة فرآها تمد إليه يدها ، وراى في نظرتها وحركتها وتعبير وجهها ما سل منه الحنق فجأة ، فأقبل عليها يحيطها في ابتسامة تتم عما كان في قلبه من الألم والعتاب .

وما كاد يأخذ يدها مصافحاً حتى وجد أنه يقاوم دفعاً قوياً لا يقدر على صده . ووجد قلبه الذي خيل إليه في بعض تردد شجاعه أنه قد خضع واسهم عليه ما زال كما عرفه قديماً . فهذه عبلة

التي كانت تهزه وهي مازالت تهزه، وهذه عينيها التي كانت تسجره
ما زالت تبعث إليه فتتها، وهذه نظراتها التي كانت تعبر له عن
أدق المعاني ما زالت فصيحة في تعبيرها وتبيينها، وهذه يدها تمتد
إليه كما كانت تمتد إليه فيشعره لمسها أسمى السعادة، وهذا صوتها
العذب الذي طالما غنت به اشعاره، وملأت به شغاف قلبه بهجة
وكبرياء. هذا صوتها الذي طالما نادته به فخيّل إليه أن المجد هو
الذي يناديه، قد عاد إليه وطرق أذنيه. وهى ذى عبلة مرة أخرى
تقول له :

— عنقرة مرحباً !

وهم بغير تفكير أن يرفع يدها إلى شفتيه، وكأنها أحست بهذه
الحركة الدقيقة وأدركت بوجودها ما فى نفسه فقبضت يدها فى ارتباك
وحاولت أن تجد غطاء من اللفظ تتوارى به من أعين قومها الذين
وقفوا جميعاً ينظرون إليها وإلى عنقرة، ولكنها عجزت أن تجد
لفظاً، فأغضت طرفها وغمغت بعض العماظ تحمية مضطربة، وخيل
إليها أن تلك اللحظة القصيرة الخاطئة التي وقعت فيها حيله قد
امتدت فصارت دهرًا. فلوت رأسها تريد أن تفسح لغيرها ممن
يتزاحمون على تحية عنقرة ولم يجد عنقرة من اللفظ ما يستطيع به

أن يعبر عما أراد أن يقوله سوى أن قال بغير وعى :
— سيدتى ! ثم أرسل يدها . فصاحت مروءة ضاحكة مرة
أخرى قائلة فى خبث :

— أما سمعتم قوله ؟ عنتر عبد عبلة .
فامجرت ضحكة من الحاضرين حولها . ونظرت إليها عبلة
فى ارتباك ، وأغضت واحمر وجهها ، ولكن سحابة الوجوم
انتشعت عند ذلك وأطلق عنتره يقول لأخته فى مرح :
— إنك أيتها الأخت الحبيبة تذكرينى بأيام سعيدة . أيام
كان عبثك الخبيث يغيظنى .

فقالت : أما يغيظك اليوم يا عنتره ؟
ثم اتجهت إلى عبلة فى خفة وقالت :
— ولكنه يغيظها . انظر كيف يظهر على وجهها ما تحمل
من الكراهة لى . ما هذا اللقاء العاتر يا عبلة ؟ أما كنت بالأمس
تبيكين وتقولين لى : متى أراه يامروءة ؟
هاهو ذا دونك فتعلقى برقبتة .

فعاد الضحك إلى الجميع وأحسَّ عنتره أن كل ما داخله من
الغضب والعتب قد تبدد فى لحظة ، وأقبل على الذين حولهم يرد

تحياتهم ولكنه كان لا يرى في الوجوه سوى صورة عبلة .
ولا يسمع من اللفظ إلا صدى صوتها .

وغربت شمس ذلك اليوم مرة أخرى كما غربت سائر الأيام ،
وكانت النيران توقد عند شعب الجواء وفي حلة عبس ، واصداء
العناء تتردد بين الخيام من كل جانب بشعر عنقرة الذي قاله في
الحنين وهو بعيد .

واجتمع فتيان عبس على الخيل في الفضاء الرحب حول الحلة
يتطاردون ويتراقصون فوق الجياد ، بعضهم واقف على ظهرها
وبعضهم يتقلب على جنوبها ويدور من تحت بطونها ، وخرج
عنقرة راكباً وكانت عبلة على الجواد أمامه وهو واقف خلفها
على ظهر الجواد شاهراً سيفه يلمع في ضوء النيران الموقدة ، وركض
جواده بها في وسط حلقة الفتیان وهو ينشد :

أرض الشربة ترهبها كالغدير ونسيمها يسرى بمسك أذفر
يا عبل كم من غمرة ناشرتها بمتقف صلب القوائم أسمر
فأنتيتها والشمس في كبدا السما والقوم بين مقدم ومؤخر
وكانت الأصداء تتردد في الفضاء من إشاد الفتیان بشعر عنقرة

أنا في الحرب العوان غير مجهول المكان

أينما نادى المنادى في دجى النقع يرانى

ولما انتهى الحفل الصاخب إلى مطلع الفجر ، ركب عنترة وزوجه
عبلة إلى السرادق العظيم الذى أقامه شيبوب لهما فى أقصى الحلة ،
ذلك السرادق الذى أهدها إليه كسرى وما زالت القبائل تتحدث
عنه كأنه المدينة إذا أقيمت قوائمه . وكانت جواببه محلاة بنقوش
الذهب ، ودعائمه ملبسة بصفائح الفضة . فإذا أضاءت فيه المصابيح
فى الليل تلالأت أنوارها فوق فصوص الجواهر المنشرة فى جوانبه .
وسار شيبوب وراءهما يشيعهما حتى دخلا إلى السرادق فقال
ينادى عنترة :

— أما كنت تريد أن أحدثك حديثاً طويلاً ؟

فنظر عنترة إليه باسمماً ، ثم التفت إلى عبلة وأمسك بذراعيها
ناظراً إلى عينيها وقال :

— لا بأس عليك يا شيبوب فأبى أحب سماع الحديث منها .

ثم ضمها بين ذراعه فلبدت فى صدره ، ولفت شيبوب عينيها
مغمماً ببعض ألغاز مهمة ومضى عهما يمسخ دمة سرور جالت
فى عينيها .

